أكثر الروايات مبيعاً في العالم

أجاثا كريستي



أقوى من الموت

مكتبة النافذة

الفصل الأول

أثناء إقامتي في باريس أخبرني خادمي بارفيت بأن هناك سيدة ترغب في مقابلتي لأمر عاجل وخطير.

والواقع أنني قد مللت هذا الأسلوب الذي اعتاد عليه بعض الناس الذين لا يبالون بوقتك وصحتك كما أنني لاحظت أن أغلب هؤلاء يتوافدون طلبا لمعونة مالية قد لا يكونون في حاجة إليها بينما الذين يحتاجونها بالفعل يتعففون عن سؤالها. على أية حال طلبت من خادمي بارفيت معرفة اسم تلك السيدة، فناولته بطاقة تحمل بياناتها وقرأت اسمها على صدر البطاقه وكانت تدعى كاترين يعقوبيان وهو اسم لم أتشرف بمعرفته فضلا عن أن الاسم كان مثيرا لأعصابي. لماذا لا أعرف فقد ظننت أنها ربما جاءت كمن سبقتها طلبا لمعونة أو جاءت تبيع لي إحدى التحف المشبوهة أو شراء أثاث من منزلي والحقيقة أنني أبديت أسفي لعدم تمكني من مقابلتها وطلبت من خادمي أن يخبرها بذلك على أن تكتب خطابا تخبرني فيه سبب مجيئها وأسرع بارفيت حاملا رسالتي إليها.

وخادمي بحق رجل ذكي لا يمكن لمن كان مقعدا عاجزا

مثلي أن يستغني عن خدماته ودوره؛ لهذا كنت واثقا مطمئنا أنه سيقوم بمهمته خير قيام لاشك في ذلك، وسرعان ما احتواني الذهول وتملكتني الدهشة حين عاد على الفور ليخبرني أن السيدة تصر على مقابلتي وأن المسألة غاية في الخطورة تتعلق بمصير أحد أصدقائي القدامى، وشعرت في الحال بفضولي يتحرك بقوة ليس لأن المسألة خطيرة والأمر يتعلق بصديق قديم فهذه أسباب مستهلكة، وإنما بسبب إصرار خادمي وهو مالم أتعود عليه منه طوال خدمته لي.. وظننت في بداية الأمر أن كاترين قد تكون سيدة شديدة الجمال والفتنة والأنوثة، فشعرت بمدى حاجتي إلى رؤيتها، وأمرته أن يدخلها، وإذا بي أجد امرأة يخلو وجهها من أي لمسة جمال وتبدو أقرب للدمامة إن لم تكن دميمة وشعرها يتدلى على كتفيها دون تنسيق، وثيابها رثة ومظهرها يدعو للشفقة وإن بدت قوية صلبة عنيدة لا تلين ولا تتكسر وحين نطقت بلسانها تسمرت مكاني فقد كان صوتها أجش مثيرا للجلبة والضوضاء والإزعاج.

ونظرت إلى خادمي نظرة قاسية تحمل عتابا أدركه هو على الفور ولكنه تجاهل ذلك قائلا لي:

- هذه يا سيدي مدام يعقوبيان، تقدمت السيدة ناحيتي

في إصرار وشعرت برغبة عارمة في الفرار منها إلا أنني شعرت بعجزي في هذا الوقت وهو شعور لم أشعر به من قبل إلا في تلك اللحظة.

وفجأة صاحت تقول: سيدي أرجو أن تتفضل وتأتي.

كانت لهجتها حادة كأنها أمر لا استجداء.

فقلت لها: عفوا إنني.

- إنك ماذا.. إني ساصحبك إلى مستر جابرييل حيث إنه في حالة خطيرة وسوف يموت قريبا، إنه يود رؤيتك ويجب أن ترافقني للذهاب إليه.

كانت السيدة تتحدث الإنجليزية بصعوبة شديدة لهذا لم افهم منها من يكون صاحب هذا الاسم الذي لم أكن قد سمعت عنه من قبل.

- وقلت: تقولين إن رجلاً يحتضر يريد رؤيتي وأنا اعرفه؟

- نظرت ناحيتي في حدة وقالت: نعم.. رجل تعرفه جيدا.. وهو في حاجة لرؤيتك.

- ما هو اسمه بالضبط؟

- إنه جابرييل.. جابرييل.

فكرت في صاحب الاسم مرة أخرى وعادت تقول:

- جون جابرييل.

وتذكرت هذا الاسم إنه رجل صاحب وجه كئيب دميم وهو يهتز إلى الأمام وإلى الوراء في هدوء، كما تذكرت، سنت لو والسيدات المسنات وريو بيرت هذا الشاب الطويل الوسيم وإيزابيلا، وبالفعل قد تذكرت لقائي الأخير مع جون جابرييل في زاجرار وما حدث وقتذاك ومرت بي لحظات غضب عنيف وضيق واستنكار فقلت في قسوة:

- إذن فهو يلهث أنفاسه الأخيرة حقا! أوه.. ما أروع ذلك انني سعيد لسماع هذا الخبر.. عفوا يا.

تقولين إنه يحتضر؟

- نعم، وهو في حالة صحية حرجة ويتألم كثيرا، وشعرت بالطرب لسماع ذلك فقد كان ظالما غير منصف وغير عادل ولكن كيف أشرح سعادتي لتلك التي تبدو لي وكأنها تعبده؟! وعدت اقول لنفسي: ترى ما هو السبب الذي يجعل النساء تلتف حول هذا الرجل ويميلون إليه ويعشقونه إلى حد القداسة؟

إنني أراه دميما ومغرورا رغم ذلك، لكنه بالطبع يتحلى بالذكاء ويتسم بروح الدعابة كما أنه لطيف المعشر إذا رغب وأراد، لكني أظن أن هذه الصفات لا تتطلع إليها السيدات وقطعت كاترين حبل أفكاري بصوتها الأجش قائلة:

- إنك سترافقني لزيارته أليس كذلك.. هيا لا داعي لإضاعة الوقت.

قلت لها في هدوء بعد أن كظمت غيظي:

- عفوا يا عزيزتي إنني لا أستطيع المجيء معك إليه.

- أوه.. لكنه يريد.

- أنا آسف لا أستطيع الذهاب معك.

- أنت لا تفهم أنه مريض يحتضر ويريد رؤيتك.

تأهبت لكي أتعامل معها بقسوة حتى لا أشعر أمامها بالضعف مثلما شعر خادمي بارفيت وإن كان من العسير إقناعها بما أريد وعادت تقول: إنه قرأ اسمك، إنك عضو في اللجنة وهو طلب مني إحضارك إليه فورا.

- قلت لها اسمعيني جيدا: إن هذا الرجل لم يكن صديقي في يوم من الأيام بل إنني أمقته لا أريد سماع

اسمه هل تفهمين ما أقول؟

نظرت إليه في دهشة وذهول وهي تقول كالطفل:

- ماذا تقول؟ هل تكره جون حقا؟

- نعم.. هذا صحيح.

وشعرت بالاشمئزاز بعد أن قالت وهي تبتسم في استخفاف:

- هذا هراء.. إن جون شخصية لطيفة وكريمة ولا يمكن لأحد أن يمقته إنه إنسان رائع كم نود لو أننا متنا بدلا منه.

- قلت في فزع: أوه.. لماذا لا يستحق هذا الرجل كل هذا الإخلاص وفي هدوء لم أتوقعه منها راحت كاترين تتحدث معي قرابة نصف الساعة وأشهد أنني احترمت إخلاصها وإن عجزت عن فهم بعض كلماتها حيث إنها لا تجيد التحدث بالإنجليزية.. وقد روت لي كثيرا عنه كما لو كان أحد الأنبياء والقديسين.. كانت تتحدث عنه كرجل يدفع الظلم عن غيره وينفق على الفقراء والمساكين ويتحلى بالشجاعة والكرم والسخاء وأنه يغفر لمن عذبه وأساء إليه وينشر العدل في مجتمعه دون تردد وهو صاحب معجزات خارقة ثم قالت في ثقة:

- تقول إنك لا تعرف عنه شيئا فعله يستحق إعجاب الناس به؟

ورغم ذلك فالعالم كله قد سمع عن الأب كليمانت.. نعم العالم كله.. أوه.. تقصدين الأب كليمانت إنه نار على علم إنه رمز للخير والعطاء، إن هذا الرجل مثله مثل ريتشارد قلب الأسد والأب داميان فقد تجمعت فيهم صفات خارقة فجميعهم مقاتلون بواسل.

والأب كليمانت هو الذي اظهر في أثناء مجاعات الهند ومذابحها فأنقذ فيها الأطفال وانتزعهم من أيدي الطغاة والجلادين وعبر بهم طرقات محفوفة بالمخاطر فنال إعجاب العالم أجمع وصار أسطورة هذا القرن وإذا بالسيدة كاترين تأتي الآن لتكشف النقاب عن شخصية هذا القديس فإذا به جون جابرييل الذي كان عضواً وزميلاً لي في البرلمان الإنجليزي وكان شغوفا بالنساء مولعا بالخمور والملذات لا هم له سوى مصلحته الشخصية وكان أفاقاً وداعراً وأمام تلك المعلومات الخطيرة وجدتني أضغط على جرس خادمي لكي يساعدني على النهوض من مكاني لكي أصل إلى السيارة لمرافقة كاترين، كنت شغوفا ومدفوعا بقوة هائلة من الفضول لمعرفة الحقيقة، كنت تواقا لمعرفة

سر اهتمام النساء به خاصة وأنا أعرفه حق المعرفة ثم أريد أن أعرف أيضا ماذا رأت فيه إيزبيلا ودفعها لكي تفعل ما فعلت؟

لقد كانت إيزبيلا هي ضالتي المنشودة وحلمي الضائع والضوء الذي يهديني في الظلمات وهي أملي وحبي الوحيد حتى ظهر جون جابرييل إن قصتي معها تنتهي هنا وتبدأ مع جون جابرييل.

وتتبعت أثر كارترين يعقوبيان في السلم الضيق وفي داخل غرفة صغيرة تطل على فناء خارجي وجدت طبيبًا فرنسيًا له لحية طويلة ووجه جامد كان منحنيًا فوق المريض وسرعان ما تراجع إلى الخلف وأشار إلي أن أقترب منه.. كان الطبيب يبدو لي وقورا.

واقتربت من المريض إنه جون جابرييل نفسه بوجهه الدميم وعينيه الجميلتين ومنظره الذي يشبه الأراجوز وكانت كاترين على حق فقد بدا أمامي رجل دين روحاني يشع الإيمان من وجهه وهو يحتضر وابتسم كعادته وهو يقول: إذن نجحت كاترين في إحضارك، ما أروع هذه السيدة! واستطرد يقول إنك بالطبع تريد أن تعرف كيف ماتت إيزبيلا فقلت له: أنا أعرف وأتذكر جيدا.

قال: لا وحكى لي اللحظات الأخيرة لموتها.

كان يتحدث كقديس يستقبل الموت في طرب وسرور.. ونسيت أمام هذا المنظر مغامراته النسائية وعربدته وفساده فقد رأيت أمامي رجلاً يتحدث عنه العالم باحترام وإجلال رجلاً تأسست على يديه عشرات الجمعيات الخيرية والمؤسسات الاجتماعية رجل يتحدث عنه الأدباء والصحفيون في فخر واعتزاز، رجلاً صار معجزة لا يستطيع أحد أن يرتاب في أمرها وإن كنت أعرف أنا فقط أنني أمام جون جابرييل ذلك السفيه العربيد زير النساء أما الأب كليمانت أسطورة هذا القرن فهذا يعرفه الجميع، أما أنا فأعرف حقيقة هذا الرجل الوصولي الذي أحب تلك المرأة التي أحببتها.

★ ★ ★

الفصل الثاني

والآن سأروي قصتي فالدنيا قد فتحت ذراعها لي وأعطتني كل ما أردت فقد كنت أشغل وظيفة مرموقة في هيئة التدريس وكنت أيضا قد ادخرت بعض المال من خلال عملي في الميادين العسكرية وكانت علاقاتي العائلية على أحسن ما يكون.

نعم كنت أثناء ذلك في السابعة والثلاثين من العمر وفي ذلك اليوم أحسست أن حدثا على وشك أن يقع وتساءلت في نفسي هل هذا الحدث سيكون تجربة جديدة جوهرية؟

وركبت القطار في محطة بنزانس واشتريت تذكرة لتناول وجبة طعام العشاء داخل عربة الطعام وحين مر عامل القطار يخبرنا بأن موعد العشاء قد حان، ناولته التذكرة واتجهت إلى عربة الطعام وجلست إلى خلف القاطرة لأجلس على مقعد شاغر، وقد كانت تجلس أمامي جينفر وهكذا شعرت أن الحادث الغامض وقع حيث إنني لاحظت أنها تبكي أو تكاد تبكي فهي تبدو أمامي كمن تحاول أن تتغلب على دموعها حتى لا يلاحظ أحد عليها أنها تبكي.

وجاء الخادم وسألنا عما نريده من شراب فطلب كل منا

مشروبا باردا، وكان الصمت يلف مائدتنا وانشغلت أنا في مطالعة المجلة التي أحضرتها معي، وكنت أحيانا أختلس النظر إليها فلاحظت أنها شابة جميلة سوداء الشعر معتدلة الجسد تصغرني بسنوات تنتسب إلى نفس الطبقة الاجتماعية التي أنتمي إليها وكانت ذات أنوثة فاتنة ورغم هذا كانت لا تجذب الأنظار إليها نظرا لهدوئها.

وقررت فجأة أن أنظر إليها بإمعان لاستكشاف ملامح وتضاريس وجهها ولكن توقفت على الفور حيث لاحظت أن دموعها تنساب أمامي وقطراتها تتساقط على طبق الحساء وحاولت من جانبها أن تكف عن البكاء وقد نجحت في محاولتها فبادرت أقول لها لكي - أعرف ماذا بها-

- اوه يبدو أنك في مأزق اليس كذلك؟

- فأجابت بسرعة وفي حدة قائلة: بل الأفضل أن تقول إنني غبية وخيم الصمت بيننا مرة أخرى فقد جاء الخادم بطبق من شرائح اللحم وقطع قليلة من البطاطس والكرنب.

ونظرت إلى النافذة وقلت لها: إنني لا أعرف أين نحن الآن فهل تعرفين؟

فأجابت نعم.. فأنا أعيش فيها.

وراحت تحدثني عن بلاد الغال وديفونشاير والضفة الشرقية ولم يكن لكلامنا معنى أو لون فقد أردنا أن نقطع الصمت الذي خيم علينا وبعد أن فرغنا من تناول الطعام وتناولنا أقداح القهوة قدمت لها سيجارة وأعلنت أسفي لها لتطفلي عليها ولكنها أجابتني:

- إنني أعتذر لغبائي.

- كلا.. أنت لم تستطعي مقاومة دموعك فقط هذا ما في الأمر.

- نعم إن من العار أن أبكي أمام الناس.

- كلا.. لقد حاولت أن تتغلبي على دموعك قدر المستطاع.

- نعم فأنا لم أكن أبكي بصوت عال.

- هل الأمر خطير إلى هذا الحد يا سيدتي؟

- نعم خطير جدا.. إنه نهاية لأشياء كثيرة ولا أعرف ماذا سأفعل؟

- هل يمكن أن أعرفه فأنا غريب والغرباء لا يفضحون الأسرار بل يتعاطفون دائما.

- نعم كل ما في الأمر أنني تورطت حتى شعر رأسي.

- ربما تبالغين يا سيدتي وأنك في حاجة إلى شجاعة في التفكير وإرادة قوية في اتخاذ قرار مناسب.

- وحضر الخادم ليحمل أطباق الطعام الخالية وبدأت في أعقاب ذلك تتحدث بطلاقة وأنا أستمع إليها في اهتمام بالغ وراحت تتحدث عن متاعب تعرضت لها وأرهقتها بسبب خجلها ودماثة خلقها حدث لها ذلك أكثر من مرة وهي طفلة ثم وهي شابة ثم وهي امرأة متزوجة وقد لاحت لها الفرصة للخروج من تلك المتاعب إلا أنها رأت الفرصة غير مناسبة فازدادت الأمور تعقيدا وسوءًا على سوء.

ولكنها لم تلم نفسها على ما حدث وشعرت بأنني قد تأثرت إزاء تلك الكلمات وأردفت تقول في ثقة: إنني أخطأت وأتحمل مسئولية ذلك.

وكدت أقول لها: بل إنني ساذجة ووديعة ولو استمرت أحوالك على هذا النحو فسوف تتعرضين لمتاعب كثيرة بأكثر من ذلك.

ووجدت إنسانة رقيقة هادئة ضعيفة كم انتظرتها طويلا

وإنني اود أن أرد لها شجاعتها وقوتها لكي أرى جينفر آخرى.

ولم نخطط لكي يرى كلانا الآخر فقد كانت واثقة أنها لن تراني مرة أخرى بينما كنت واثقا أنني سأراها مرة أخرى.

وبادرتني تقول: «وداعا ولكن تأكد أنني لن أنساك ما حييت ولن أنسى محاولاتك للتخفيف عني بعد أن أصابني اليأس والشقاء».

وأمسكت يديها في حنان وأنا أودعها رغم ثقتي أنه لن يكون وداعا أخيرا فسوف ألتقي بها حتما في الوقت الذي اختاره وبالفعل رأيتها بعد أسبوع في حفل كوكتيل عند كاروسترانجويز ولم يتسلل الشك لدى أي منا وفهمنا مغزى ما حدث لنا.

هكذا كنا نلتقي وسرعان ما نفترق في حفلات اجتماعية وعند الاصدقاء وفي المطاعم الصغيرة وكنا نستقل قطارات تتجه بنا إلى الريف.

ونتجه بعدها إلى حفلات غنائية لكي نستمع إلى إليزابيث شومان وهي تغني وتقول:

«في ذلك الممر حيث قادتنا خطانا

كنا نلتقي فننسى الدنيا وتلفنا

الأحلام ونسأل السماء أن تضع

الأختام على حبنا الذي لن تعرف

الدنيا أن تقوضه»

وحين كنا نخرج من هذه الحفلات كنت أقول في طرب وسعادة البيت الأخير من الأغنية «ونعيش في حب وهناء دائمين إلى الأبد» ثم إذا التقت عيناها في عيني تقول:

- إن السعادة ليست لنا يا هوج.

كان صوتها يبدو عليه الحزن والضيق فقلت:

- عفوا يا حبيبتي أردت أن أسمع صوتك.

- أنا سعيدة لذلك يا حبيبي.

واتفقنا على اللقاء في المطار ورحت أغني وأنا أحلق ذقني وأرتدي ملابسي وشعرت أنني أعيش أجمل أيام عمري ثم اتجهت إلى سيارتي وكان يجب أن يقودها هاريمان إلا أنني طلبت منه أن يجلس في المقعد الخلفي وانطلقت في طريقي وكانت حركة المرور هادئة وكان أمامي فسحة من الوقت.. أوه لقد كان صباحا رائعا جميلا كما لو

كان قد خلقه الله من أجلي أنا وجينفر وكم تمنيت أن أغني من أجل أن تسمعني الدنيا بأسرها.

وسرعان ما جاءت عربة النقل من الشارع الجانبي بسرعة ستين كيلو مترًا في الساعة وكان عسيرا أن أتحاشاها فلم يكن هناك أي خطأ من ناحيتي وارتطمت عربة النقل بالسيارة البويك وحطمتها ثم حطمتني معها ومات هاريمان على الفور أما جينفر فقد كانت تنتظرني في المطار وانطلقت الطائرة دون أن أرى جينفر.

★ ★ ★

الفصل الثالث

لا أستطيع أن أصف لكم ما حدث لي من مأساة فقد التفت حولي دائرة كبيرة من الأطباء والممرضات وعلامات الفزع تسيطر على وجوههم وكنت أشعر بالهوان واليأس والكراهية، فقد انتهى بالنسبة لي كل شيء وتعرضت لاضطراب في الذهن وشعرت بالضياع فأنا فقدت إحساسي بأنني سأعيش شأن كل الرجال حيث إن جسدي قد تحطم وتفتت وأقبل أناس لزيارتي فكان أخي في حال ذهول لا يعرف ماذا يقول وكيف يتصرف؟ كنت أريد أن أحدثه عن جينفر ولم أتمكن فلم أكن أفكر إلا فيها، وكثيرا ما أحضروا لي رسائلها وكانت إدارة المستشفى قد سمحت لأقاربي فقط بزيارتي إلا أن جينفر لم تكن سوى مجرد صديقة.

كتبت إلي تقول ذات مرة: «إنهم منعوني من زيارتك يا حبيبي ولكن تأكد إنني سأزورك إذا سمحوا لي بذلك فلا تفكر في أي شيء سوى شفائك» جينفر

وفي رسالة أخرى: «أنني أحبك يا هوج سأنتظرك للأبد» وكتبت لها أرجو منها الابتعاد وقد كنت طريح الفراش في

منزل أخي ورجوتها أن يتخلص كلانا من هذه العلاقة إلا أنني أدركت أن علاقتنا ليست جسدية بل روحية شفافة بعيدة عن الشهوات وتبادلنا رسائل كثيرة اشتعلت فيها جذوة الحب بيننا وقامت بزيارتي ثلاث مرات، وشعرت بالرغبة ناحيتها وكنت عاجزا عن أداء ذلك.

ما أقسى مرارة انهيار الأحلام وراح كل منا يتساءل عن أحلامه التي انهارت وتفتت ولكني كنت أشعر أن الملل قد تسرب بيننا وأحسست بالملل من حديثها معي وهي أيضا.

وحين قالت أنها ستعود قريبا لزيارتي قلت لها الا تفعل ذلك فأكدت أنها ستعود.

فقلت لها محتجا: كفانا خداعا لأنفسنا، إن كل شيء قد انتهى بيننا لكنها أكدت أنها تنوي أن تضحي من أجلي وتكرس حياتها لي إلا أنني خشيت أن تفعل ما تقول فقد سئمت وجودها بالفعل وطلبت منها أن ترحل بلا عودة وتنساني وأطاعتني وقد لمحت نظرة ارتياح في عيناها.

وانصرفت وجاءت زوجة أخي وأخبرتها أنها لن تعود مرة أخرى فأكدت لي أنها بالفعل لن تعود.

وسألتها هل المرض هو الذي يجعلني أرى الأشياء على

غير حقيقتها فأكدت لي صدق حدسي فقلت:

- هل تقصدين أنني أرى جينفر الآن على حقيقتها؟

- فقالت: نعم.

- وماذا ترين في جينفر يا عزيزتي؟

- هي سيدة جذابة طيبة رقيقة لكنها تخلو من أية اهتمامات.

- هل تظنين أنها تعيسة؟

- نعم هي كذلك.

- أتظنين أنها تعيسة بسببي أنا؟

- كلا.. ولكن بسببها هي.

- نعم لإنها تلوم نفسها لأنني ذهبت إلى المطار من أجلها.

- نعم هو كذلك.

- لكنني لا أريد أن تتعذب بسببي.

- لا تشغل بالك بها.

- ماذا تقصدين؟

– اقصد أنها تجد متعة في تعذيب نفسها.

وشعرت بالضيق من أجلها.

★ ★ ★

الفصل الرابع

رحلنا بعد ذلك إلى قرية سانت لو بمقاطعة كورنواي حيث إن تيريزا زوجة أخي قد ورثت قصرا من عمة لها.. وكان طبيبي المعالج قد نصحني بمغادرة لندن وكان أخي روبير رساما يعتقد البعض أنه يرسم الريف بطريقة خاطئة ولهذا وجد أن الفرصة قد جاءت لكي يرى الريف على صورته الحقيقية، وسبقتنا تيريزا زوجة أخي لكي تجهز لنا كل شيء وبعد أن فرغت من توقيع عدة أوراق لا حصر لها استطعت أخيرا الانتقال في عربة إسعاف خاصة.

وقلت لتيريزا في صباح اليوم التالي: كيف تجري الأمور هنا؟ وكانت قد استطلعت ذلك فقالت: أن القرية تنقسم إلى ثلاثة أقسام مختلفة.. الطبقة القديمة وهي طبقة الصيادين الذين يقيمون على مشارف الميناء ببيوتهم ذات الأسطح اردوازية وبعد الميناء بقليل تقوم على طول الشاطئ بيوت حديثة وفنادق أعدت لإقامة السياح والطبقة البرجوازية، والبلدة تكتظ بالحركة في الصيف تتميز بالهدوء في فصل الشتاء.. وهناك قصر سانت لو وتقيم فيه الليدي سانت لو، وهو قصر تمتد فروعه عبر طرقات ملتوية نحو عدة قصور شيدت في الوادي في ظل أبراج

قديمة وأردفت تيريزا تقول: «وبمعنى آخر.. بيوت النبلاء».

سألتها: إلى أي طبقة ننتمي نحن يا تيريزا؟

أجابت: إلى طبقة النبلاء طبعا.

إن قصر بولنروث كان مملوكا لعمتها مس لوسي تريجلليس وهذه الأخيرة كانت ضمن طبقة النبلاء وأما هذا القصر فقد آلت ملكيته لتيريزا كميراث شرعي لها لهذا صرنا من طبقة النبلاء.

وسألتها: وحتى أخي روبير رغم أنه رسام؟

أجابت: سيكون من العسير قبوله ضمن هذه الطبقة الأن أغلب الرسامين يعيشون في سانت لو أثناء الصيف ولكن لا تنس أنه زوجي فضلا عن إنه سليل عائلة بولدورد العريقة.

ثم سألتها عن مدى الدور الذي يجب أن تلعبه في هذا القصر الرائع؟

فأجابت: إنها ستشترك في عضوية الجمعيات الأهلية كسيدة مجتمع.

- ماذا تقصدين؟

- أقصد السياسة والزراعة والجمعيات الخيرية.

خاصة وأننا أصبحنا على مشارف انتخابات جديدة.

- هل كنت تهتمين بالسياسة من قبل يا تيريزا؟

- أبدا.. كل ما في الأمر هو أنني أذهب للإدلاء بصوتي في صناديق الانتخاب فلم أكن أشعر بفائدة مرجوة منها، وأردفت تقول إنها سوف تهتم الآن بالسياسة بصورة جدية وسوف تنضم إلى حزب المحافظين حتى ترتاح عمتها في مثواها.

- قلت: ولكن ماذا إذا تبين لك أن حزب العمال هو الأفضل؟

- أجابت: لو افترضنا ذلك فلن أتردد في الانضمام لحزب المحافظين ومرت نحو خمسة عشر يوما على وجودنا في هذا القصر وأثناء ذلك جاءت الليدي سانت لو لزيارتنا بصحبة شقيقتها الليدي تريسليان وزوجة أخيها مسز بيجهام كارتريس وحفيدتها إيزبيلا وبعد أن انصرفوا جميعا قلت لتيريزا: أوه ما أشبه هؤلاء بالأميرات الساحرات اللاتي نقرأ عنهن في كتب الأساطير وعرفت من تيريزا أن الليدي سانت لو كانت أرملة البارون السادس الذي كان حاملا هذا اللقب والذي قتل في حرب البوير أما ولداها

الكبيران فقد لقيا حتفهما في الحرب العالمية الأولى فقد مات ولدها الأصغر في حادث طائرة وقد ترك ابنته إيزابيلا بمفردها حيث إن أمها ماتت أثناء ولادتها ثم انتقل اللقب إلى ابن عم يعيش الآن في نيوزيلندا وكان سعيدا لأنه يؤجر القصر للأرملة العجوز فترعرعت إيزابيلا مع جدتها وعمتيها حيث إن الليدي تريسليان قد أقبلت للإقامة في القصر بعد وفاة زوجها كما جاءت أيضا أخت زوجها مسز بيجهام كارتريس وكانت نفقات المعيشة مقسمة بينهن بالتساوي ولهذا استطاعت إيزابيلا أن تعيش في رغد وهناء.

ثم عرفت أن الليدي سانت لو قد تجاوزت السبعين من العمر هي وزميلتاها وبدت كل منهن أشبه بالغراب كما كان وجه الليدي سانت لو مليئاً بالتجاعيد والنمش وكانت عريضة الجبهة أما الليدي تريسليان فكانت ذات عينان جميلتان ووجه مستدير وممتلئة الجسم على العكس تماما من مسز بيجهام كارتريس النحيفة وكان يحيط بهم جميعا جو إمبراطوري عريق فالمجوهرات مرصعة على الصدور.

هؤلاء هن صاحبات قصر سانت لو ومعهن إيزابيلا وهي طويلة القامة ذات جبهة عريضة وشعر أشقر اللون يتدلى

على كتفيها كانت تشبه لوحات الفن الزجاجي كانت بسيطة الجمال تفتقد روح المرح والجاذبية وإن كانت تبدو كأنها أسطورة أو فتاة من فتيات العصور الوسطى تؤكد ملامحها أصالتها ونبلها.

وهنا استطردت تيريزا تقول:

- إن إيزابيلا تبدو كمثل أميرة وقعت في الأسر أليس كذلك؟

- نعم هذا صحيح وكان يجب عليها أن تمتطي صهوة جواد أبيض ولكن أخبريني يا تيريزا لماذا كانت هكذا صامتة لا تتحدث إلا ردا على سؤال وفي أدب شديد ألم تخض حربا من قبل؟

- كلا لقد قادت سيارة الصليب الأحمر بعد مغادرتها المدرسة الداخلية وهي الآن في التاسعة عشرة من عمرها.

- أوه.. المدرسة الداخلية؟ أتقصدين أنها كانت في مدرسة داخلية حقا؟

- نعم.. مدرسة سانت بيان.

وأصابتني الدهشة حيث إن المدرسة كانت باهظة

التكاليف ومزودة بأحدث الوسائل العلمية.

وسألت تيريزا: أهذا يدهشك حقا؟

قلت في بطء: نعم فهي تبدو كما لو كانت لم تغادر بيتها إطلاقا.

هزت رأسها وقالت: أنا أفهم ما تقصده.

وشاركنا أخي روبير في الحديث وقال: هذا يؤكد مدى تأثير البيئة والوراثة وعدت أقول: ولكنني أتساءل فيما كانت تفكر؟

قالت تيريزا: لعلها لم تكن تفكر إطلاقا.

والواقع أنني كنت في غاية البؤس والضيق فقد صرت إنسانا عاجزا يحتاج شفقة الآخرين بعد أن كنت أجيد ممارسة الرياضة البدنية وها هي أطرافي صارت مغطاة حتى لا يراها أحد وكنت أرقب ردود فعل زواري وكانت غالبا ما تثير أعصابي أي كانت أشكالها حتى الذين تظاهروا أمامي أن حالتي بسيطة وعادية كنت أبغضهم ولكنني استجبت لرغبات تيريزا في أن أتحلى بالإرادة والعزيمة وأن أندمج في محيط المجتمع لا أعتزل الناس حتى لا يساء فهم شخصيتي ووافقت دون تردد والحقيقة

أن تصرف السيدات المسنات الثلاث لم يكن مثيرا لي فقد أشفقت الليدي تريسليان بعاطفة الأمومة أما الليدي سانت لو فقد تجاهلت بأدب ولباقة أما مسز كارتريس فقد أخفت مشاعرها نحوي وقد رفضت الخوض في الحديث عن رياضة الجري أمامي إشفاقا على حالي.

أما إيزابيلا فهي تكاد تكون الوحيدة التي أثارت استغرابي بطبيعتها فقد تسمرت عيناها ناحيتي لا أعرف لماذا؟

ثم بعد ذلك نظرت إلى الحصان الخشبي الهزاز فسألتها:

- هل يروق لك؟

فكرت كثيرا ثم قالت في قوة وشجاعة:

- نعم إنه يروق لي بالفعل.

وسألتها: هل تجيد ركوب الخيل؟

أجابت في هدوء: إن هذه أول مرة ترى فيها حصانًا خشبي.

- قلت لها أقصد الجياد الحقيقية؟

- أجابت: أوه.. نعم ولكن إمكاناتي المادية لا تسمح لي بشرائه.

- هل تحبين الصيد؟

- كلا.. فالمنطقة هنا ليست معروفة بالصيد.

- هل تحبين ركوب البحر؟

- نعم.

وعادت إيزبيلا إلى صمتها مرة أخرى، كانت هادئة رائعة تتصف بأروع صفات البشر وهو الهدوء، كانت تبدو ساكنة كالحصان الخشبي لا يتحرك إذا حركه أحد.. وهي أيضا لا تتكلم إلا إذا تحدثت مع أحد وتحدثت بعد ذلك مع سانت لو في السياسة والكتب الصادرة أخيرا وكان قصر بولنورث كبيرا وقد اضطرت توفيرا للنفقات أن تخصص جزءا منه للإيجار فكان من نصيب الكابتن كارسليك الوكيل الانتخابي لحزب المحافظين وحين انتقلت ملكية القصر إلى تيريزا وزوجها لم تستطع طرده نظرا لأزمة المساكن الخانقة، وهذا بالفعل دفعنا للاشتراك في تنظيم دعاية حزب المحافظين سواء كان ذلك في داخل القصر أو مقر حزب المحافظين واشتعلت تيريزا حماسا وراحت تقود سيارتها لتوزيع

ملصقات الحزب ونشراته ورغم أن بلدة سانت لو كانت إحدى قلاع حزب المحافظين إلا أن السياحة قد غيرت دفة الأمور لصالح حزب العمال بسبب توافد قطاع كبير من مؤيدي العمال وفاز حزب العمال في الانتخابات العامة عام ١٩٤٢

وهنا صاح الكابتن كارسليك مخاطبا تيريزا قائلا:

- إننا نستحق هذا الفشل عن جدارة.

أما أنا فلم أكن أميل للعبة الانتخابية لإنها سخيفة تشبه الرسومات الغامضة في اللوحات السريالية الغبية

* * *

سمعت باسم زميلي جون جابرييل للمرة الأولى في ذلك المساء الذي تحدث فيه الكابتن كارسليك حيث أكد أن الحزب لم يحظى في الانتخابات السابقة بالنتيجة التي يستحقها فقد تقدم سير جيمي برادويل وهو محافظ، مرشحا عن حزب المحافظين وهو أحد أهالي المنطقة وهو رجل غني يتصف بمبادئ نبيلة وبلغ من العمر اثنتين وستين سنة لكنه كان قليل الذكاء في اتخاذ قرارات سريعة حاسمة وكان أيضا يتعثر في خطبه السياسية.

وأردف كارسليك قائلا: كان منظره يدعو للشفقة وحصل على أصوات ضئيلة لأنه خجول رغم ما يتحلى به من صفات نادرة.

قلت: ولكن لا تنسى أن الناخب يحتاج إلى رجل شجاع ذكي.

قال: كلا هو في حاجة إلى رجل خبيث ماكر كثير الوعود لا يفي بها والمرشح المنافس كان خطيبا مفوهًا لا يشق له غبار وعلى أية حال فإننا استوعبنا الدرس جيدا.

- هل هذا الرجل يتمتع بشعبية كبيرة؟

يمكننا التخلص منه لأنه فقير لا يستطيع الإنفاق على مشروعات الخير.

- إذن فإن حزب العمال سيتولى أمور السلطة؟

- نعم لأننا لم نكن نتوقع ذلك من هذا الحزب.. ولكن لا تنس أن بريطانيا كلها تقف وراء تشرشل.

ثم نظر إلى ناحية تيريزا وهو يقول:

- انني أتوقع مستقبلاً باهرًا لك في السياسة يا إيزبيلا.

- فقالت إيزابيلا: لكنني لا أشعر بأي ميول ناحية السياسة.

- لكن لابد أن تهتمي بها، أليس كذلك؟

ونظر ناحيتي كأنه يطلب مني أن أوافقه.

لكنني لم أعلق على كلامه.

- ثم قال لها: إن زوجك يمكن أن ينضم إلينا؟

- قالت: لكنه شيوعي.

آه لقد أطلقت تيريزا بهذه الكلمة أقصد «شيوعي» مليون لغم انفجر في وجه كارسليك فلو أنها قد قالت إنه سفاح أو



قاتل لكان أهون عليه من أن يسمع مثل هذه العبارة التي أصابته بالذهول والدهشة وتراجعت تيريزا أمام حالة الفزع التي لاحظتها على وجه الرجل وقالت في هدوء وخجل: أقصد أنه فنان موهوب.

فقال كارسليك في عصبية: نعم.. نعم إنني أفهم ما تقصدينه.

قلت: إنني أتساءل ما هو شكل مرشحنا القادم؟

ولاذ الرجل بالصمت وهو يفكر فيما زل بها لسانها منذ قليل ثم عادت تسأله:

- هل سير جيمس هو المرشح الجديد؟

- فقال الرجل: كلا.. كلا.. إن مرشحنا هذه المرة غريب عن البلدة.

- إذن من يا ترى؟

- إنه رجل يدعى الميجور جابرييل وهو حائز على وسام صليب الحرب.

- أي حرب تقصد؟ هل الحرب الماضية؟

- كلا.. أقصد التي تدور رحاها الآن.. إنه شاب لا

يتجاوز الرابعة والثلاثين من العمر كانت له مواقف شجاعة وبطولات خارقة في معركة ساليرن وقد أصيب في ميدانها بعد أن نفذت ذخيرته رغم أن مظهره لا يدل على ذلك.

سألته: هل يجيد حديث المنصة؟

أجاب: أوه.. إنه أسد على المنصة، ثعلب في ميادين السياسة لكن للأسف لا يوجد له تاريخ في عالم السياسة.

سألته: إذا كان لا ينتمي إلى هذه البلدة فمن أي بلدة هو؟

أجابها: هو بالطبع لا ينتمي إلى طبقتنا لكنه من الناحية العسكرية خبير وماهر ولكن ما أخشاه أن مظهره لن ترضى عنه الليدي سانت لو.

سألته: وماذا يهم في ذلك؟

أجابها: كيف وهي رئيسة المنظمة النسائية لحزب المحافظين ولها تأثير كبير على نساء القرية والنساء هنا عددهن كبير وإن كان هذا الرجل يمتلك جاذبية خاصة ناحية النساء وهذا سبب تفاؤلي.

- وما هي توقعاتك من ناحية الليدي سانت لو؟

أظن أنها سترضخ في النهاية لاختيار الحرب النهائي، سوف تقف معه وإن كنت أتمنى أن يكون هذا الرجل من الرجال الذين يتميزون بالأناقة.

***

في مساء إحدى الليالي رأيت جون جابرييل داخل قاعة دريك وكانت تيريزا قد تمكنت من أن تعد لي سيارة متحركة رائعة أسير بها أينما شئت وذهبت بواسطتها إلى القاعة المذكورة وكانت قد اكتظت بأعداد غفيرة من الأثرياء وكبار السن أما هؤلاء الشباب فقد اتجهوا فورا إلى البحر لكي يتمتعوا بأشعة الشمس وسرعان ما حضر رئيس الحزب وحوله أنصاره وراح يتحدث بصوت جهوري وألقى كلمة لا معنى لها وعرفت أنه كان جنرالا سابقا اشتهر في ميدان المعركة بالكفاءة النادرة وكان غريبا هذا التصفيق المدوي الذي قوبل به رغم ضعف كلمته ورداءتها ثم أنهى كلمته بأن قدم للجمهور المرشح الجديد جون جابرييل هذا الحائز على وسام صليب فيكتوريا وصفق الحاضرون في حماس للمرشح الجديد وسمعت الليدي تريسليان تقول: خسارة أن تكون له مثل هاتين الساقين الهزيلتين وشعرت برعشة في جسدي لسماعي مثل هذه العبارة القاسية لقد

كان الرجل معتدل القامة يرتدي ثيابًا أنيقة ووجهه يؤكد أنه من طبقة راقية صحيح أنه كان دميم المنظر لكن صورته توحي أن له جاذبية غريبة رغم ساقيه الضعيفة.

وقام جابرييل وألقى خطبة حماسية استمر فيها نحو ثلث الساعة واستطاع أن يحوز على إعجاب الجماهير ويثير حماسهم له بعدها وقف رئيس الحزب يدعو الجماهير للوقوف خلف جابرييل واقتربت الليدي تريسليان مني وهي تقول في إعجاب:

- ما هو رأيك؟

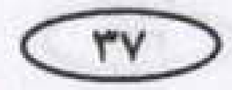
- قلت: لا بأس إنه رجل من طراز رائع وفي كلماته إخلاص وحب.

- وأنا أيضا أعجبت به فهو خليفة تشرشل وبريطانيا كلها مع تشرشل.

- أظن أن المحافظين سيفوزون في الانتخابات فوزا ساحقا.

- هذا صحيح.





بعد مرور حوالي ٤٨ ساعة جاء جون جابرييل للتشاور مع كارسليك وتناول معه شرابا باردا وكوكتيل وخرجت تيريزا مع كارسليك لكن تنهي معه أزمة قد حلت بشأن الانتخابات واعتذرت بدوري لجابرييل بأنني لا اقوى على النهوض لكي أقدم له شرابا وطلبت منه أن يعد لنفسه ما يجب أن يتناوله دون حرج وأحضر عصيرا لنفسه وآخر لي قدمه لي وهو يقول:

- أظن أنك مصاب في الحرب أليس كذلك؟

- كلا.. إنها نتيجة حادث في الطريق.

وتظاهر الرجل بالأسى والحزن من أجلي وهو يقول:

- خسارة.. لقد افتقدت فرصة رائعة.

- ماذا تقصد؟ هل كنت تريد مني أن أزعم أنها إصابة حرب؟

- نعم كان بمقدورك أن تزعم ذلك.

- إنني بالفعل اشتركت في حرب العلمين.

- إذن هذا يكفي للحديث عنها والناس ستعرف الباقي

من تلقاء نفسها.

- أهذا أمر هام وضروري؟

- بالنسبة للنساء غاية في الأهمية فهن يعشقن أبطال الحروب.

قلت في أسى: أنا أعرف ذلك.

- قال: أنا آسف فهذا يثير ضيقك أحيانا ولكن معذرة لذلك ثم أردف يقول: إنني على موعد مع السيدة الكبيرة الليدي سانت لو والمرء يشعر بالضآلة إذا وجد نفسه أمام طبقة أرستقراطية فهو بالفعل يشعر أنه في مأزق كبير.

- أعترف يا جابرييل أنني لا أفهم ماذا تقصد؟

- قال وهو يبتسم: الواقع أنني أجد نفسي في مكان لا يناسبني.

- أوه.. تقصد أنك لا تجيد فنون العمل السياسي؟

- كلا.. كلا أقصد أن هؤلاء الأرستقراطيين لا يميلون للعمل مع من هم مثلنا فهم يتحرون عن جذوري وأصولي وهذا، ولكنهم في النهاية يجدون أنفسهم في حاجة لمن هم مثلي.

واستطرد يقول في بطء: كان أبي يعمل سمكريا متواضعا.

ولهذا شعرت أنني من طبقة العمال ولا يمكن أن أنتمي لهؤلاء أبدا.

- لكنك لا تؤمن ببرنامج حزب العمال؟

- الأمر سيان عندي.. سواء العمال أو المحافظين إنني أسعى فقط لكسب الرزق لكي أعيش فهذا هو سر اهتمامي بالسياسة خاصة بعد أن وضعت الحرب أوزارها وأصبحنا في حاجة إلى مصدر رزق يساعدنا على العيش لذلك فأنا أسألك هل تتوقع نجاحي في الانتخابات؟

- قلت إن هذا يعود لشعبية حزب المحافظين.

- أتظن أن الحزب سيفوز؟ أن هذا ما أتوقعه.

- أنت واهم فالعمال هم الحصان الأسود في حلبة السباق.

- كيف تظن هذا حقا؟

ثم أردف يقول: أنت تسألني لماذا لم أنضم إلى حزب العمال؟

إن العمال أناس أذكياء مكافحون أما المحافظون فهؤلاء أناس يتصفون بالثراء الفاحش ولكنهم أغبياء وهم في حاجة إلى من يساعدهم لذلك وجدت أن فرصتي تتجلى مع هؤلاء الأغبياء.

وانا أريد أن أشق طريقي مثل السهم.

- يشترط في ذلك أن تفوز في الانتخابات؟

- إنني بالفعل سوف أفوز.

نظرت إليه قائلا: أتظن هذا حقا؟

- نعم ولكن إذا تخلصت من ضعفي أمام النساء فأنا لا أستطيع مقاومة النساء الجميلات، هناك مثلا سيدة جميلة تنزل في الفندق لعلك لم تلاحظها!

ثم نظر إلى جسدي وقال: للأسف أنت لا تستطيع رؤيتها وشعرت بالضيق من نظرته وكلماته.

وقلت له: هل يعرف كارسليك هذه المعلومات؟

- إنه رجل غبي ويبدو أنك تمزح، كيف أخبر هذا الغبي بذلك؟

هكذا كان أول حديث لي مع جون جابرييل ولم أستطع

أن أتخلص من انطباعي الأول عنه فهو في تقديري رجل وصولي انتهازي أفاق يشعر بالوحدة والعزلة وإن كنت قد احترمته لصراحته المطلقة معي والتي لم أكن أتوقعها.

ثم سألته عن كيفية العلاقة التي تربطه بالليدي سانت لو،

أجابني: اللعنة على هذه السيدة إنها تريد أن تملكني وهي بالفعل تملكني وتستطيع أن تلوي عنقي إذا هي أرادت ذلك أنها تملك كل الأدوات في يدها.

فقلت له: لكنها امرأة من الماضي لا تملك شيئا كما تقول.

فنظر إلي نظرة غريبة وهو يقول: يالها من سيدة وقحة ومغرورة إنها تنظر لي كصبي جزار أو ميكانيكي لا قيمة له إنها تتعامل معي باستعلاء وكبرياء لا نظير له.

وأدركت أن جون جابرييل يعاني من عقدة أبيه السمكري التي لازمته طوال مشوار حياته وحين قرأ ذلك في عيني راح يقول:

- نعم.. ما تفكر فيه صحيح أنني أعاني عقدة نقص والدي، وهذه السيدة ومن كانت على شاكلتها ينظرن لي

هكذا أنني حثالة سأظل مهما بذلت من جهد وعرق ودموع في الدرج الأسفل.

- قلت في نفسي ياله من وغد حقير إنه يضمر شرا وحقدا دفينا ثم استطرد يقول: على الرغم أنني أفضل حالا منهم جميعا وعلى الرغم من أنهم يعيشون على ذكريات الماضي الذي اندثر إلا أنني حين أجتمع مع أي منهم أشعر بضآلة نفسي لأنهم يعتبرون أنفسهم طبقة راقية سامية لا نستطيع الوصول إليها مهما فعلنا ثم قال وهو يضحك: لا تبالي إنني أهذي.

وعاد ينظر من النافذة إلى القصر وهو يقول في حسرة: اللعنة على هذه النسوة الثلاث وهذه الفتاة الصغيرة التي تظن أنها أميرة في قصر ملكي رغم أنها فتاة عادية جدا.

بعد قليل دخلت تيريزا ومعها كارسليك ثم استأذن جابرييل وخرج بصحبة كارسليك وظلت تيريزا معي ثم قالت:

- أوه.. إنني كنت أريد أن أتحدث معه، لماذا انصرف جابرييل؟

- لا عليك يا عزيزتي سوف يحضر مرة أخرى.

قالت: لاحظت إنه لفت انتباهك وهذه أول مرة تهتم بأحد؟!

قلت: لأنني أميل للسياسة على عكس ما كنت أظن من قبل.

قالت: أعتقد أنه اهتمام خاص بالرجل لا بالسياسة.

قلت: كيف وهو رجل قبيح المنظر والمظهر.

قالت: هو ليس وسيما لكنه جذاب.

نظرت إليها في دهشة فقالت في الحال:

- لا تنظر إلي هكذا إنه بالفعل جذاب وهذا رأي النساء فيه.

- كيف وهذا النوع لا تميل إليه النساء؟!

- قالت: أنت لا تفهم ماذا أقصد.

★ ★ ★

الفصل السابع

بينما كنت أتمتع بأشعة الشمس في الشرفة كانت إيزابيلا تحمل رسالة خطية من الليدي سانت لو إلى كارسليك وبعد أن سلمتها له جاءتني وجلست على مقعد بجواري فقلت لها:

- أنا أحب الشمس جدا يا إيزابيلا.

- وأنا أيضا أعشقها.

- لكنك لست سمراء.

- لأن أشعتها لا تؤثر في بشرتي.

كانت بشرتها بيضاء خاصة تحت ضوء الشمس وكان وجهها جميلاً ورأسها عالية تتسم بالكبرياء والزهو.

وسألتها: لقد تناول الميجور جابرييل العشاء معكم ليلة أمس أليس كذلك؟

- نعم.

- هل حضرت اجتماع قاعة دريك؟

- نعم.

- أين كنت؟ لم أرك حاضرة فيه؟

- كنت أجلس في الصف الثاني.

- هل أثار اهتمامك؟

- كلا.

- لماذا ذهبت؟

- لأن هذا من صميم عملي.

- هل أنت سعيدة بهذا العمل؟

- نعم.

وشعرت أن إيزابيلا تجيب باختصار شديد، وقد أثار ذلك حنقي فالمعروف عن النساء الثرثرة والرطرطة في الكلام الذي يخلو من الجدية، ولكنها كانت تتحدث كسيدة مجتمع أو إحدى السفيرات أو من سيدات السلك الدبلوماسي.. إنها تجيب بقدر السؤال وربما أقل منه وهي إجابات غير شافية وغير كافية ولكنني لاحظت أنها سعيدة في حياتها الجديدة بجوار السيدات الثلاث لكنني كنت أشعر بالخوف عليها من هذه الحياة الجديدة فسألتها مرة أخرى:

- هل كنت هكذا دائما يا إيزبيلا؟

- فكرت قليلا ثم قالت: نعم.

- هل كنت سعيدة في المدرسة الداخلية؟

- نعم.

والحقيقة أنني لم أكن أتخيل إيزابيلا في مدرسة داخلية فهي تختلف عن كل الطالبات، إنها مخلوق رقيق لطيف جميل هادئ حلو المعشر، إنها بالفعل أميرة ساحرة رغم أنها لم تكن جميلة جدا لكنها أيضا جذابة وشعرت أمامها أنني لست عاجزا ولم أعد معوقا، إنها فتاة تبعث فيك الدفء والحرارة كما تبث فيك بابتسامتها الأمل وإشراقة المستقبل.

★ ★ ★

الفصل الثامن

بعد ذلك بيوم أو ربما يومين أظن أن طفلة صغيرة سقطت في حوض سانت لو حيث كانت تلعب مع أقرانها وفجاة زلت قدمها وهوت في البحر، وكان الميجور جابرييل يمشي فوق الرصيف أثناء تلك الحادثة وسرعان ما ألقى بنفسه خلف الطفلة وتجمع عدد غفير من الناس حول مكان الحادث ولكن فوجئ الميجور أن هناك رجلا آخر قد ألقى بنفسه قبله وكانت المفاجأة أن الميجور لا يجيد السباحة!!

ونجح الرجل الآخر في إنقاذ الطفلة والميجور وخرجت الفتاة مغشيا عليها واستردت وعيها بعد محاولات حثيثة من التنفس الصناعي وجاءت أمها على عجل في فزع وقد ارتمت على أحضان الميجور تشكر صنعه وكانت ملابسه مبللة فأسرع إلى الفندق لاستبدالها.

في نفس هذا اليوم صحبه الكابتن كارسليك لتناول الشاي وقال مخاطبا تيريزا:

- لم أشهد في حياتي رجلا في مثل شجاعته لقد ألقى بنفسه على الفور وراء الطفلة وهو لا يجيد السباحة وكان حسبه الآن في عداد الموتى والمفقودين ولكن الميجور

جابرييل أبدى تواضعا وتحفظا وهو يقول:

- بل كان غباء مني فالأفضل أن أستعين بأحد السباحين أو أستقل زورقا مطاطيًا لإنقاذها ولكنني لم أفكر في كل هذا.

- قالت تيريزا: إنها شجاعة ذاتية.

وانصرفت وهي تحمل صنية الشاي فعاد الميجور يقول:

- يبدو لي إنها ذكية جداً.

- تقصد من؟

- مدام دوريز إنني يجب أن أحتاط لها منذ الآن.

- ماذا تعني؟

- إنني تصرفت تصرفًا أهوج وهي تعتبره شجاعة! ما رأيك أنت؟

- هو ذلك؟

- قال وهو يضحك: أنني كنت أتصرف أمام هذا الموقف من أجل الاستحواذ على إعجاب الآخرين وكم تمنيت أن يكون الحادث في نهر الطريق مثل حوادث السيارات مثلا لكني للأسف سيئ الحظ.

- أوه.. هل أعطيت هذه الفتاة نقودا لكي تلقي بنفسها في البحر؟

كنت بذلك أمزح لكنه أخذ كلامي على محمل الجد وراح يقول:

- كلا.. كلا هذا غير وارد بالمرة.. كيف أفعل ذلك وأنا لا أجيد السباحة.

- ضحكت وقلت: أريد أن تحدثني بصراحة ألا تعرف السباحة حقا؟

- أجاب: بإمكاني العوم على سطح الماء عدة دقائق فقط.

- كيف وأنت جازفت بحياتك؟ فما هو الثمن؟

- يفوز بالملذات كل مجازف أليس كذلك يا عزيزي؟

فإنني أعرف أن هناك رجلاً سبقني وسوف يفعل المستحيل لإنقاذي وهذا هو ما حدث وهذه مغامرة محسوبة جيدا ثم إنني كنت سأسترد صحتي فور التنفس الصناعي.

ولكن أنت تعرف أن الناس مغفلون فأنا لم أنقذ الطفلة ولكن الذي أنقذها رجل آخر ورغم هذا فقد عاملوني معاملة الأبطال الشجعان وهذا هو ما كنت أريده، وهذا

أيضا من أجل الانتخابات القادمة.

- ألم تشعر بالخوف وأنت تلقي بنفسك في الماء؟

- لم أفكر في ذلك أبدا.. بل كنت سعيدا لهذه الفرصة.

- كيف تعتبرها مناورة ضرورية لك؟

تغيرت ملامح وجهه ثم أردف يقول:

- كيف تقول ذلك وأنا لا أملك أي موهبة في السياسة أو الخطابة أو حتى الثروة أو البطولة وقد لاحت لي الفرصة أقصد فرصة شجاعة طارئة تساعدني في الانتخابات، أنت لا تفهم أن مغامرة كهذه هي أفضل من كل الأوسمة والنياشين.. إنها دعاية رائعة لم تكلفني شيئاً.

- سؤال آخر: لو لم يكن هناك شهود يتابعون الحادث هل كنت ستلقي بنفسك في الماء وراء الطفلة؟

- كلا لو لم يوجد أحد ما ألقيت بنفسي أبدا وراء الطفلة فماذا سأستفيد؟ كنت سأموت دون أن يراني أحد.

- أكنت ستتركها تموت؟

- كلا إنني لست خنزيرا بل كنت سأحاول قصارى جهدي ثم راح يسألني هل تظن أن الغرفة التجارية ستمنحني ثيابا

جـديده بدلا من الأخـرى التي ابتلت وانكمشت، لكنه لم ينتظر جوابا وانصرف، وشعرت بالغرابة لحديثه فأنا أميل إليه لصراحته معي وأمقته لأنه أناني وصولي أفاق.

وبعد قليل جاءت الليدي تريسليان تقول في طرب:

- ألم أقل لك إنه شجاع لقد ألقى بنفسه في الماء وراء الطفلة وهو لا يعرف السباحة.

- ولكن محاولاته كادت تفشل.

- نعم ولكنه مندفع وشجاع ونبيل وجسور لا يحسب حسابا للخوف، كان باستطاعتي أن أصارحها بالحقيقة وهي تتحدث مثل فتاة مراهقة ثم وهي تقول:

- إن الرجال البواسل يروقون لي، أما مسز كارسليك فهي إنسانة تتصف بالمكر والدهاء ولا تروق لي أبدا وقد قالت في حماس:

- إن شجاعة الميجور لا نظير لها وقد سمعت عنه أنه كان أسطورة وبطولة نادرة في ميدان القتال حتى أن جنوده كانوا يعشقونه ويودون أن يموتوا في سبيله ولكن هذا العمل يتجاوز كل حدود العقل والمنطق.

واردفت تقول: إنني سوف أنصح رئيسه أن يذكر هذه الواقعة في مؤتمره الانتخابي القادم رغم أن هذا سيثير غضب الميجور لأنه رجل لا يميل للتفاخر والرياء.

- أوه.. لقد نجح في أن يعطيك هذا الانطباع حقا، ولكنها لم تسمع ما قلته.

ثم عادت تقول هذه الثرثارة:

من واجبنا أن نعلن بكل صراحة هذه الأعمال البطولية حتى يستفيد الشباب من دروسها.

والغريب أن الكابتن كارسليك كانت تروق له كلمات زوجته الماكرة الخبيثة وجاءت مسز بيجهام بعد ذلك وأفصحت لي عن آرائها الخاصة عن حادثة الميناء فقالت:

- لابد أن الميجور جابرييل من أصل نبيل.

- هل تعتقدين ذلك؟ إن أباه سمكري.

ابتلعت مسز بيجهام الإهانة وهي تقول:

- كنت أشك في هذا قليلا ولكن لو تحرينا عروقه لاكتشفنا أصالة أحد أجداده.. وأنا واثقة من ذلك.

ثم بعد لحظات.. ينبغي أن يعود لزيارة القصر.. وسوف

أتحدث مع أدلايد في ذلك.. فإنها باردة في معاملاتها أحيانا.. وبرودها يدعو للتجمد.. مهما يكن الأمر فإنني متفهمة لموقفه.

- أوه.. يبدو لي أنه اكتسب شعبية كبيرة هنا!

- نعم إنه يجيد التصرف وقد نجحنا في اختياره فالحزب كان يتطلع إلى دم جديد كنا في أمس الحاجة إليه.

وبعد لحظات من الصمت قالت:

- من المتوقع أن يكون درزائيلي جديدًا.

قلت: هل تتوقعين ذلك؟

قالت: إنه يتمتع بحيوية ونشاط لا نظير له.

وعرفت رأي الليدي سانت لو فيما بعد.. وقد أخبرتني تيريزا بعد أن عادت من القصر حيث صاحت قائلة وهي تنظر في قاعة القصر:

- هل فعل هذا؟

وفهمت لماذا وصفها جون جابرييل بالساحرة العجوز.

★ ★ ★

الفصل التاسع

كان الطقس رائعا فالشمس قد أشرقت والسماء تلونت بزرقتها الصافية وكنت جالسا في الشرفة ومن حولي أحواض الزهور وكنت أرى من مكاني شرفات ونوافذ قصر سانت لو عبر البحر وكان بمقدوري أن أرى إيزابيلا وهي تعبر المراعي وهي في طريقها إلى بيتنا.

والواقع أنها اعتادت على المجيء يوميا عندنا.. وكانت تجلس بجواري في أغلب الأوقات وكانت صداقة غريبة لاشك في ذلك.. إنها لم تكن علاقة عطف أو شفقة بل هي أكثر من هذا وأجمل كانت تحبني فعلا ويروق لها حديثي وكانت صادقة في حديثها وحديثنا كان عن الأحوال المحيطة بنا.

وحدث أن اكتشفت إيزابيلا عصفورًا ميتًا وقد أصابها الحزن والأسف وراحت تقول بصوت متهرج حزين.

- انظر.. عصفور ميت.

- ناوليني إياه.

- ألا تحبين العصافير؟

- كلا ولكني لا أستطيع أن ألمس شيئا ميتا.

نظرت إليها في عطف فأردفت تقول:

- إنني أخاف الموت.. بل إنني أفزع منه.. وذلك لأنني سأموت يوما ما وهذه حقيقة لاشك فيها.

- بل سنتعرض له جميعا دون شك.

- الا تخاف وأنت واثق أنه يقترب منا ساعة بعد ساعة!

- نعم أخاف رغم اقترابي منه.

- ولكن هل تظن أن الميجور جابرييل لا يخاف الموت؟

- قلت بإخلاص: إن جابرييل من هؤلاء الناس الذين لا يحسبون حسابا للموت ولا يعرفون الخوف.

قالت: نعم هذا ما فكرت فيه أيضا.

عدت أقول لها: ولكن لماذا تخافين الموت هكذا هل حدث لك موقف ما؟

- قالت: ربما لأن أبي قد مات مقتولا قبل ميلادي.

- قلت: هذا احتمال وارد.

- قالت: إننا كعصافير الكناريا تشدو وتغني ثم سرعان

ما تموت في لحظة ألا يعد ذلك أمرا فظيعا.

- قلت: أحيانا اتمنى أن يأتي الموت.

نظرت في دهشة وقالت: ماذا تقصد؟

- قلت: أنا مثلا ما هي قيمة الحياة بالنسبة لي، إنني لا أستطيع الحركة بل لا أقدر على ارتداء ملابسي أو حتى الاغتسال فأنا هيكل محطم، إنني صرت أشبه بكرسي أو منضدة.

- لكنك تعيش وعلى قيد الحياة وتتمتع بأشعة الشمس ثم إنك كدت أن تلقى مصرعك أليس كذلك؟

- ليتني مت.

نظرت ناحيتي في دهشة كأنها لا تفهم مغزى كلامي وسألتني:

- هل تتعذب في أوقات فراغك وعزلتك؟

- نعم لإنني لم أعد عنصرا فاعلا في الحياة.

- لماذا وقد يمكن للإنسان أن يعيش دون أن يكون عنصرا فاعلا؟

أثناء ذلك وقعت بين يدي علبة مملوءة بأقراص الأسبرين

وصرخت في إيزابيلا اجمعيها إنني في حاجة إليها.

وانحنت في هدوء وأدب تجمعها وفجأة أقبلت تيريزا.

- فقلت: ها هي تيريزا.

وسرعان ما وضعت إيزابيلا إيشاربًا خاصًا بها على بقايا أقراص الأسبرين لإخفائها ثم عادت تستكمل حديثها معي وهي تقول:

- أظن أنك تتوقع أن كل شيء سوف يختلف حال عودة ريوبيرت إلى القصر.

وبات حديثنا طبيعيا واقتربت تيريزا منا وهي تقول:

- ما هو رأيكم في تناول مشروب بارد؟

وأعلنت موافقتي على الفور ولمحت تيريزا الإيشارب فانحنت لكي تلتقطه إلا أن إيزابيلا قالت لها في هدوء:

- دعيه مكانه يا مسز نوريس إن هذه الألوان تبدو رائعة على الأعشاب فتركته تيريزا وانصرفت وهي تبتسم بينما كنت أنا في ذهول.

وقلت لها: لماذا فعلت ذلك يا عزيزتي؟

قالت: تصورت أنك لا تريد أن ترى ما حدث.

قلت مبتسما: إنك ذكية حقا.

والواقع أنني كنت مطالبا من الأطباء بتناول هذه الأقراص إلا أنني رفضت أن أتناولها ولو حدث أن تيريزا قد شاهدت كل هذه الأقراص لهاجت وماجت ضدي ولهذا شكرت إيزابيلا وكانت إيزابيلا هي الأخرى تبدو في حالة دهشة من عدم تناولي هذه الأقراص وسرعان ما سألتها:

- من هو ريوبيرت؟

- هو ابن عمي.

- تقصدين اللورد سانت لو؟

- نعم فقد يعود قريبا بعد أن عاش فترة الحرب في بورما، ثم إنه صاحب القصر ونحن استأجرناه منه.

- لكن لماذا تحدثت عنه فجأة هكذا؟

- لكي أفاتحك في أي موضوع أمامها، ثم قالت: أظن أنني أفكر فيه كثيرا لهذا نطقت اسمه.

★ ★ ★

حتى تلك الساعة كان اللورد سانت لا يمثل في تقديري سوى اسم فقط وصاحب قصر غائب وهو الأمر الذي دفعني لكي أتساءل مع نفسي كثيرا فيما يتعلق بشأن هذا القادم.

وفي عصر هذا اليوم أقبلت الليدي تريسليان ومعها كتاب تصورت أنه سيثير اهتمامي ثم أعقب ذلك حديثا قصيرا عن الانتخابات ثم تطرقنا للنقاش حول شخصية جابرييل وذكائه في ردوده على تساؤلات الناخبين التي تشغل بالهم وراحت تتحدث بدورها عن اللورد سانت لو فقالت إنها تود عودته السريعة فسألتها بدوري:

- وهل يستطيع العودة؟

- نعم فقد ترك الجيش بعد إصابته في بورما مؤخرا.

- وهل ينوي الإقامة الدائمة في القصر؟

- لا أعرف وإن كنا نتمنى أن تطيب له الإقامة هنا فهو في الواقع شاب وسيم ظريف نحبه جميعا وهو أيضا يبادلنا هذا الحب بل ويميل إلى إيزابيللا.

وأردفت إن إيزابيلا كانت في الحادية عشرة من عمرها وهي تلاحقه أينما كان وكان كثير السؤال عنها.. ويبعث لها ببرقيات التهاني في جميع المناسبات وجاءتني إيزابيلا في اليوم التالي لهذا الحديث وجلست بجواري على مقعد حجري وسألتها:

- هلا حدثتني عن روبرت؟

- لا أعرف شيئا عنه حتى أحدثك به.

- لكنك أخبرتني من قبل أنك مشغولة دائما به.

- نعم أنا قلت ذلك وقد أتزوجه عما قريب.

والتفتت ناحيتي واستغربت صمتي إزاء كلماتها.

وقالت: لقد كنت في الحادية عشر من عمري وكان هو في السادسة عشر وقبل أن يغادر أخبرني أنه سوف يعود لكي يتزوجني وأنا أنتظره لكي نحقق هذا الحلم الجميل.

وأثناء ذلك جاءت مسز بيجهام كارتريس وهي تحمل لفافة صغيرة ألقت بها بجانبي وطلبت مني أن أسلمها للكابتن كارسليك فقلت لها:

- لكنه في مكتبه.

فأسرعت تقول: أنا أعرف ولكني لا أميل إلى زوجته والحقيقة أنني شخصيا لا أميل إليها ولكن فهمت من مسلك مسز بيجهام كارتريس أن شيئا ما قد حدث وقد لاحظت إيزابيلا هي الأخرى فسألتها:

- ما الأمر يا عمتي مود؟

أجابتها مسز بيجهام في صوت واهن:

- إن لوسيندا تعرضت لحادث سيارة.

أما لوسيندا فهي كلبة مسز كارتريس.

وأردفت تقول: إن أحد السياح كان يقود سيارته بسرعة جنونية ولم يفكر حتى في الوقوف.. هيا بنا يا إيزابيلا ينبغي عودتنا الآن.

سألتها إيزابيللا: أين هي الآن؟

- لقد ذهبت بها إلى بارت وكان الميجور جابرييل قد ساعدني وكان كريما للغاية وقد كان يمر أثناء وجودي معها وحين وجدني أبكي أقبل وتحسس الكلبة فأدرك على الفور بذكائه أن مؤخرة الكلبة لا تتحرك فطلب مني على الفور نقلها إلى أقرب طبيب بيطري وصحبني إليه.

واستطردت تقول: إننا ذهبنا إلى الدكتور جونسون المشهور وهو في بولوتيني وهي تبعد عنا كثيرا.

- قلت لها: من هو أحسن طبيب بيطري في سانت لو؟

- جيمس بارت.. إنه طبيب ممتاز جدا إلا أنه رجل خطير لا أثق فيه أبدا خاصة أنه مدمن للكحوليات ولكنه قريب منا ويجب أن نذهب بها إليه ولكن حذار فقد تعضك.

هز جابرييل رأسه وقال: إنها لن تؤذيني، لا تخافي.

ثم التفت ناحية الكلبة قائلا: لا تخافي أيتها الكلبة العزيزة، وحملها بين يديه في رفق وكان بيت الدكتور بارت على مقربة وفتحت بابه امرأة جميلة في الثانية والعشرين من عمرها وعرفت مسز بارت بيجهام على الفور وراحت تقول:

- أوه.. يا سيدتي.. إنني أتأسف لك فإن زوجي خرج منذ قليل.

- ومتى سيعود بارت؟

- بين لحظة وأخرى إن موعد العيادة من التاسعة إلى

حوالي العاشرة ومن الثانية إلى الثالثة وأنا واثقة أنه سوف يعتني بكلبتك.. أوه.. هل أصابها حادث سيارة؟

صاحت ميلي بارت: إنه أمر مؤسف فأغلب قادة السيارات أشبه بالمجانين في تلك الأيام، هيا اتبعوني إلى غرفة العمليات! كانت هذه السيدة تتحدث في نبرة هادئة رقيقة.

وبجوار الكلبة لوسيندا وقفت مسز بيجهام لمداعبتها بينما كانت ميلي بارت تتحدث في كافة الموضوعات دون توقف وبعد لحظات اتجهت مسز بارت إلى التليفون لكي تتحدث إلى زوجها في مزرعة جرانج وكان التليفون في ردهة المنزل فتبعها الميجور جابرييل الذي ترك مسز بيجهام بمفردها مع كلبها المصاب.

وأمسكت مسز بارت بالسماعة وأدارت القرص وجاء على الطرف صوت أحد الرجال عرفته على الفور وسألته: هل مستر بارت موجود لديك يا مستر هوريدن؟

- نعم.

- أريد أن أتحدث إليه إذا سمحت.

- لحظات سأحضره إليك.

وساد الصمت لحظات وقد لاحظ الميجور جابرييل أن المرأة قد اضطربت فجأة وتقوست كتفاها وقالت في حزن:

- أطلب منك الصفح والسماح يا جيم.. كلا.. كلا.. طبعا.

ولم يتسنى للميجور سماع كلمات بارت إلا أنه استشعر صوته المرتفع في التليفون كما لاحظ سكينة زوجته وخضوعها وهي تقول:

- إن مسز بيجهام كارتريس موجودة هنا فقد تعرضت كلبتها لحادث سيارة.

- ولماذا لم تذكري لي ذلك على الفور أيتها الحمقاء؟

وشعر جابرييل بالارتباك والضيق لقسوة الزوج مع زوجته الشابة الجميلة الرقيقة وقال لها في حماس:

- أوه.. أنت زوجة رقيقة وطيبة للغاية.

فقالت له: هذا أمر طبيعي يا ميجور جابرييل.. ألست أنت الميجور جابرييل؟

واستطردت تقول: لقد قرأت خطابك في المعهد ليلة أمس. وكم تمنيت أن تفوز في الانتخابات.. بل إنني متأكدة

أنك ستفوز فالناس هنا أصابهم اليأس من مستر والبراهام فهو لا يعرف أحدا من أهل المنطقة وهم أيضا لا يعرفونه.

- لكنني مثله لست من هنا.. ولا يعرفني أحد.

- نعم ولكن أنت نموذج آخر.

وراح جابرييل يرمي شباكه حول تلك المرأة الجميلة غير عابئ بالمرأة الأخرى العجوز التي تتألم من أجل كلبها وداعب المرأة الجميلة وأطربها حديثه حتى سحرها وجذبها ولكن سرعان ما دخل زوجها فارتبكت واستغرب جابرييل منظر زوجها فهو رجل بدين ضخم قصير القامة وراحت تقول في خوف:

- أوه.. هل جئت يا جيم؟

وأردفت تقول: هذا هو الميجور جابرييل.

وصاح الزوج في انفعال: اتبعيني على غرفة العمليات أيتها الغبية.

ورثى جابرييل لحالها وأشفق عليها وبدأت القصة من هنا.

★ ★ ★

الفصل الحادي عشر

بعد حوالي يومين جاءت تيريزا إلى حجرتي بصحبة مسز بارت وهي تقول:

- أخو زوجي مستر هوج نوريز.. وهذه مسز بارت جاءت لمساعدتنا في الحزب.

وشعرت أن مسز بارت رقيقة متواضعة طيبة إلى أقصى درجة وأحسست نحوها بالعطف والشفقة ونظرت في عينيها فإذا بهما عينان جميلتان وتملكني الضعف أمامها وتركتنا تيريزا وخرجت.

وبدأت مسز بارت تقول: أرى أن واجبنا أن نبذل قصارى جهدنا من أجل هذه الانتخابات وأنا من جانبي بمقدوري أن أفعل الكثير، صحيح أنني لست على قدر من الذكاء ولكني أستطيع القيام بالأعمال الكتابية.

وقد تكلم الميجور في تلك الليلة في المعهد بأسلوب خطابي رائع.. إنه رجل كفء حقا.. ولكن لا أقصد أن مستر والبراهام رجل غير كفء ولكنني أقصد أن الإشتراكيين مجانين فعلا.. ومستر والبراهام ما هو إلا مدرس إلزامي يفتقد ميزة الإقناع ويعطي انطباعا بأنه لا

يستطيع شيئا.

والحق انني وافقتها وأكدت لها أن جابرييل رجل من طراز نادر فقالت في حماس:

- لقد سمعت انه كان بطلا مقداما في الحرب الأخيرة وسمعت عن حادث كلبة مسز بيجهام وقد ساعدها كثيرا وحضر معها إلى زوجي.. إن هذا الرجل كان بمقدوره الحصول على أوسمة عديدة إلا انه لا يتطلع إلى ذلك وأردفت تقول: إنني بعد أن سمعت عنه قررت أن أخدم حزب المحافظين بكل ما أملك من قوة ثم إن زوجي غير متفرغ لشؤن المنزل وأنا لا انجب ولذلك لدي وقت فراغ كبير، يجب استغلاله لمصلحة هذا الرجل العظيم.

- نظرت إليها في عطف ورثيت لحالها فهي تتصف بعاطفة الأمومة التي حرمت منها وراحت تسألني:

- هل أصبت في الحرب العظمى؟

- كلا.. إنني مصاب في حادث سيارة في طريق هارو استغربت تلك الكلمات وراحت تقول:

- ولكن الميجور جابرييل أخبرني أنك مصاب في العلمين؟

- لا يجب أن تصدقي كل ما يردده الميجور.

في تلك الأثناء دخل الكابتن كارسليك بصحبة الميجور جابرييل وسرعان ما تهللت أسارير الميجور حين وقعت عيناه على مسز بارت واتجه نحوها قائلا: مسز بارت.. هذه فرصة رائعة.

قالت مسز بارت: إنني أريد أن اقوم بأي خدمة لك ولحزبك

- بل إنك ستقدمين لنا خدمات كثيرة.

وأمسك بيدها طويلا وابتسم وبدا لي أنه زير نساء جذاب فقد لاحظت سعادة مسز بارت بوجوده وقالت:

- إننا لابد أن نظهر إخلاصنا لمستر تشرشل.

- إن مصير الحزب يتوقف عليكم يا معشر النساء.

وبعدها انصرفت مسز بارت بصحبة الكابتن كارسليك لكي يشرح لها طبيعة عملها وهنا قال الميجور موجها حديثه لي وهو يقسم

- إنها امرأة لطيفة للغاية.

- نعم وتكاد تركع تحت قدميك.

- ماذا تقصد يا نوريز؟

- أقصد ما قلته يا ميجور.

- إنني أرثى لحالها فهي مسكينة.

- هذا احتمال.

- إن زوجها رجل حقير لا يكف عن سبها وضربها لهذا أشفق عليها.

- إنني لا أعرف أي امرأة تفضل هل مسز بارت أم تلك المرأة التي تقيم في الفندق؟

- ولكن ماذا تقصد؟ إن مسز بارت شريفة وشريفة جدا.

- أؤكد لك أنها شريفة لا توافق على أن تسلك مسلكًا مشينا.

- وهذا هو رأيي أيضا ولكن لا يمنع ذلك أنها معجبة بك.

- ذلك بسبب بطولاتي في الحرب وحادثة الطفلة وغير ذلك.

- ومن الذي يردد ذلك؟

اعترف أن هذا أفادني كثيرا حيث إن أسهم منافسي انخفضت كثيرا.

- ولكن قل لي بربك من يذكر بطولاتك للناس؟ أهو كارسليك؟

هز رأسه وقال: أتظن ذلك إنه أبله وأنا أعتمد على نفسي فقط ثم إنني أروي للنساء بطولاتي وأتظاهر تارة بالتواضع وتارة بالغباء وثالثة بعدم الرغبة في سرد بطولاتي ثم أطلب منهن ألا يذكرن ما قلته لأحد وأنا واثق أن كل ما قلته سيتردد بعد ثوان فالنساء ساذجات وأنا أستغل هذه السذاجة بذكاء خارق.

- ألا تشعر بالخجل يا جابرييل؟

- كلا فإن هذه الأشياء ضرورة قصوى في الانتخابات.

- لماذا ذكرت لمسز بارت أنني مصاب حرب؟

- أوه.. أراهن أنك صارحتها بالحقيقة.. إن الأبطال هم رموز الحاضر وثماره وغدا سينتهي دورهم ويجب استغلال ذلك.

- يا للأكاذيب والافتراءات؟

- ولماذ، تريد أن تكون صريحا مع أي امرأة؟

- لأن هناك فرق بين أن تكذب وبين أن تتجمل.

- انا لا اطالبك بالكذب فــأنا الذي أكــذب وأتحــمل مسئولية ذلك.

وما عليك إلا ان تقول في خجل أبدا ما كان يجب على جابرييل أن يقول ذلك.

★ ★ ★

الفصل الثاني عشر

في الصبـاح التـالي تحـدثت مسـز كـارسليك مـعي عـدة دقـائق. والحقيقـة أنها لا تروق لي فقد كانت امرأة ضئيلة سليطة اللسان لا تتحدث بالخير عن أي أحد .

وتحدثت في ذلك اليوم عن ميلي بارت وقالت: إنها امرأة ظريفة تريد أن تخدم إلا أنها غبية جداً ولا تعرف شيئا في الأمور السياسية وأظنها ليست سعيدة في حياتها الزوجية.

-أوه.. إنه أمر مؤسف

-إنه رجل مـدمن الشـراب فـهو حـقـيـر وسـافل ويـعتـدي عليها كثيرا

ولماذا تتركه وشأنه.

- وأين سـتـذهب إنهـا بلا أهل وجـمـالهـا باهت لا يلفت الأنظار إليه

- أظنك تحبين ريوبيرت كثيرا؟

كلا .. أنا لا أعرفها حتى أحبها.

وانصرفت ونظرت إلى النافذه ولكنها عادة تنظر إلى ما أنظر إليه وقالت: آه.. هذه إيزابيلا كارتريس .

وأردفت تقول: إنها جميلة حقا.. لكنها حجولة.. ولكن خجلها ينطوي على رياء ونفاق.

تضايقت كثيرا من سلاطة لسانها الذي لا يكف عن الشتائم، وانصرفنا مرة أخرى.

وسرعان ما أقبلت إيزابيلا وكانت في حالة اضطراب وقالت دون مقدمات: إن ريوبيرت قادم.. قادم فعلا.. سيأتي بالطائرة بين لحظة وأخرى، ثم جلست وقلت أسألها:

- إنك تهتمين كثيرا بعودته أليس كذلك؟

- قالت: نعم.. أوه، نعم.. إنني انتظرته طويلا.

- هل تحبينه كثيرا؟

- أحبه بجنون.

- هل أنت واثقة؟

- كلا.. لست واثقة فإن أحدا لا يثق في أي شيء.

- هل مر عليكما وقت طويل دون أن تلتقيا؟

- نعم منذ ثماني سنوات.

أوه.. أنت فتاة رومانسية يا إيرابيللا.

- إنه سيتزوجني فما هي الرومانسية إذن.

ثم رسمت على الأرض خطين متوازيين وقالت: إن حياته تسير في هذا الخط وحياتي تسير في هذا الخط ولابد أن يلتقي الخطان معا يوما ما هذا إذا لم أمت قبل ذلك.

- إنك بصحة جيدة وستعيشين طويلا.

نعم أنا قوية جدا لم أتعرض للمرض أبدا في حياتي، ودخل جابرييل وهو يقول: اسمع يا نوريز.

لكنه توقف فجأة حين وقعت عيناه على إيزابيلا وقال في اضطراب:

صباح الخير يا آنسة.

كان واضحا أنه قد ارتبك وكأن شبح الليدي سانت لو يحوم حوله فقلت له: كنا نتحدث عن الحياة والموت وأنت قلت لإيزابيلا إنها ستعيش تسعين عاما.

إن الموت فظيع لا أطيق أن أسمع اسمه.

قالت إيزابيللا: إنني مثلك يا ميجور.

وقال جابرييل: هل تعتقدين ذلك؟

فقالت إيزابيلا في بطء: نعم لماذا لا تصدقني؟

وفي حركة جنونية خطف سيجارتي ووضعها على يد إيزابيلا التي احتملت جنون تصرفه.

صرخت في وجهه واتهمته بالجنون وتألمت لأنني لم أكن قادرا على أن أفعل شيئا إزاء ما يحدث ولكنه تجاهل صرخاتي وراح يقول لها: أنت شجاعة وجريئة وقوية الاحتمال وخرج بسرعة دون أن تتحدث معي.

وقلت في غضب:اذهب أيها الوحش الحقير إلى الجحيم إنك تستحق الرمي بالرصاص في ميدان عام.

التفتت إيزابيلا ناحيتي وهي تقول في دهشة:

لماذا غضبت هكذا إنه لم يفعل شيئا يغضبني لقد أراد أن يقيس قوة احتمالي وهأنذا أثبت له مدى قدرتي على تحمل الآلام ثم وأنت وجدته عاجزا عن الكلام فلماذا أنت غاضب هكذا؟

★ ★ ★

الفصل الثالث عشر

أقامت إحدى الجميعات النسائية بالمدينة مباراة رياضية لصالح مصابي الحرب، وقد أقيمت في المقر الرسمي داخل الجمعية التعاونية مبنى ملاصق لبيتنا وهو مشيد على الطراز القديم وهو يعرف لدى الناس باسم مبنى «جرانج».

ولأن المبنى كان ملاصقا لبيتنا كما ذكرت فقد ازدحم بالزائرين المدعوين للحفل الخيري وكانت تيريزا تحضر إلى غرفتي وبصحبتها زائر جديد لعله يطربني ويؤانس وحدتي أما أنا فلم أغادر غرفتي دون تردد وكنا نعمل معا في ترتيب وترقيم البطاقات وغيرها من أعمال تتعلق بالحملة الانتخابية، وفي إحدى زياراتها لي روت لي قصتها واستهلت روايتها بالإطراء على الميجور جابرييل والثناء عليه حتى اكتشفت بسهولة أنها صارت من مجاذيبه وعشاقه خاصة وهي تقول: إن أشد ما يعجبني في الميجور تواضعه ودماثة أخلاقه، إنني لم ألتقى في حياتي كلها بإنسان يتصف بمثل صفاته النبيلة النادرة.

- قلت لها في دهشة: إنني أصدقك.

قالت: إنه إنسان جميل يستطيع أن يسدي إليك خدماته

ومساعدته دون أن ينتظر منك ردا لها أو شكرا عليها وهو شخصية سياسية رفيعة المستوى لقد جعلني أحب السياسة فهو غاية في الإقناع ويكفي أنه لا يتفاخر بأمجاده وبطولاته والنساء هنا يتساءلون في دهشة عن سر معجزاته.

- لكن لا تبالي بما تسمعينه فالسياسة لا تعترف بالمبادئ والأخلاق.

نظرت إلي في دهشة وقالت: لكنه من طراز آخر.

- هذا صحيح ولكن لماذا تعتقد أن حزب المحافظين هو الأفضل؟

ثم لماذا تبخلين على الناس بإلقاء خطب سياسية يا مسز بارت؟

- أوه.. أنا كيف؟! مستحيل!.. لا يمكنني القيام بذلك أبدا هذا دور الميجور الشجاع الخطيب المفوه فهو أملنا في المستقبل.

- قلت في نفسي: هذا هو ما يريد أن يسمعه الميجور الأفاق.

- قالت في بطء: إن زوجي يزعم أنني إنسانة غبية تماما.

- أحقا؟ لماذا؟

- يزعم إنني حمقاء مثلي لا تستطيع أن تفهم شيئا في السياسة ويسألني ما هي أمكانياتي وما هي قدراتي في العمل السياسي كما يتهمني بأنني مفلسة سياسيا فهل تعتقد أنه على حق في ذلك؟

قلت: كلا.. كلا.

انفرجت أساريرها وقالت: أنا أعرف أنني قد أكون حمقاء ولكن هذا لا يحدث لي إلا إذا أساء لي جيم وسكتت قليلا وهي تضطرب ثم ألقت بأوراق كانت في يدها وهي تبكي وتقول:

- أوه.. ما أتعسني!.. إنني غبية وتعيسة جدا.. وكان ينبغي الا أتزوج رجلاً مثل جيم أبدا.

- هدئي من روعك، إن الأمر ليس بهذه الصعوبة.

- لقد كان لطيفا معي أثناء فترة الخطوبة وكان فارسا ماهرا ولا يتعاطى الخمور وقد حذرني منه الجميع وقالوا إنه قاس عنيف، ويتعاطى الخمور بشراهة إلا أنني لم أصدق ذلك وإذا بي أكتشف أن كل هذا صحيح بعد الزواج ولم يتخلص هو من عيوبه وذات مرة شاهدته يضرب جياداً

في مزرعة أبي ضربا مبرحا وكان أبي يملك مزرعة خيول وقد هالني ما رأيت وراح يقنعني أن هناك بعض الخيول التي تتطلب القسوة والعنف واقنعني بذلك وقلت في نفسي: لعلني سأسعده بعد الزواج وسوف يكف عن ممارسة أفعاله ورغم أنني تحت قدميه إلا أنني أعيش معه في عذاب وشقاء.

قلت: إن الهدف من الزواج ليس إسعاد الرجل، استغربت كلامي وقالت: إذا أنت أحببت أحدا فلا يمكن أن تكون لك اية رغبة أخرى.

- إن هذه الأمنية صورة خادعة للأنانية بل إنها أحد أهم الأسباب الرئيسية في فشل الحياة الزوجية في أغلب الأسر.

- قالت في حدة: ولكن إن هذا أمر خطير ولا يروق لي.

- إن الحب يعني في نظري عبودية لا يطيقها الرجل.

- أنت تتحدث في أشياء غريبة حقا يا كابتن فوريز.

- لا عليك فأنا لدي تجارب أستند عليها في نظرياتي.

- أوه.. هل كنت تعيسا في زواجك؟

لم أستطع الرد على سؤالها لكنني فكرت في تلك المرأة الجميلة الرقيقة، كيف تزوجت من هذا الوغد الحقير الذي لا يعرف قيمتها؟ كيف صبرت على أن تعيش معه كل هذه السنوات ثم إنها تميل بمشاعرها ناحية الميجور جون جابرييل وهو وغد وحقير، وقد يكون أسوأ كثيرا من زوجها وهو لا يصلح أن يكون زوجا لها إنها مخلوق وديع لا يعرف الكراهية تتدفق حبًا وتمتلئ بالعواطف والأحاسيس وهي في حاجة إلى رجل يعرف قدرها.

وقطعت حبل أفكاري وقالت: هل تصدق أنه يغار علي من الميجور وقد تألم كثيرا حين وجدني أتحدث معه وقد كان حديثي معه طبيعيا يدور حول أبي والحياة في سانت لو وقد قام بسب وإهانة الميجور ثم لوى ذراعي واختبأت منه في غرفتي وإنني للأسف أشعر أمامه بالخوف والرعب وكم وددت لو أنني أموت وأتخلص من حياتي.

- لا تقولي هذا، إن الأمر يمكن معالجته.

- كلا فإن الحياة مع جيم أصبحت لا تطاق بسبب إفراطه في الشراب حتى إنه أصبح يفقد عملاء واحدا بعد الآخر.



والحياة معه تسير من سيئ إلى أسوأ إنني أخاف منه خائفة جدا.

- حاولت تهدئة خاطرها إلا أنني كنت أعرف أنها تتجرع المرارة ثم قلت لها: إن الفتاة إيزابيلا تعيش هي الأخرى في تعاسة ومرارة ولكنها لا تشكو لأحد.. وحاولت إخفاء مأساتها عن الناس.

- وجاءت تيريزا ورويت لها ما حدث مع ميلي التي انصرفت ثم قلت لتيريزا:

- يبدو أن حالتها لا تثير إهتمامك.

- أجابت: كلا.. إن النساء التعيسات في أغلب الأحيان متشابهات.

- كيف تتكلمين هكذا يا تيزيزا؟ الا تحملين بداخلك قلبًا ومشاعر.

- كلا إن العطف على الآخرين هي أهم نقاط ضعفي.

- يبدو لي أن هذه المراة المسكينة بدأت تشعر بالحب ناحية الميجور جابرييل.

- هذا مؤكد.

- الا تشفقين عليها يا تيريزا؟

- إن حب جابرييل ليس أمرًا بغيضا يحتاج عطف الآخرين.

- لا تقولي إنك أيضا تعشقين هذا الوغد الحقير.

- كلا.. إنني لا أميل إليه.

- لكنك متناقضة فقد أخبرتني منذ فترة أن حب النساء لجابرييل طبيعي.

- قلت هذا لأنني أستطيع السيطرة على انفعالاتي.

- هل تظنين أن هناك خطرا على هذه العلاقة أقصد جابرييل ومسز بارت؟

- لا أعتقد.

- يجب أن يتوخى الميجور الحيطة والحذر.

- قالت تيريزا: لا أظن أن من طباعه الحيطة والحذر.

- هل تظنين أنه يحب مسز بارت فعلا؟

تأملت تيريزا وفكرت قليلا ثم قالت: هو رجل طيب ينفعل متأثرا من أجل الآخرين وأظنه يعطف عليها ويرثى لحالها.

- ولكن هل يمكن أن ينصحها بالانفصال عن زوجها؟

- كيف ولماذا؟

- إن هذا سيكون خطرا داهما يا تيريزا؟

- طبعا.. طبعا ولكن خطرا داهما على من؟ حزب المحافظين أم على الميجور؟

- طبعا أنا اقصد جابرييل وإن كان ذلك سيؤدي إلى وقوع كارثة تهز عرش الحزب العتيق.

- ولكن لماذا تقول ذلك إذا كان هذا التصرف سوف يسعدهما معا.

- لكنه يتطلع للفوز في الانتخابات فقط.

- وماذا لو فاز بها وفاز بأصوات سانت لو؟!

★ ★ ★

الفصل الرابع عشر

في صباح يوم المباراة الخيرية جاءني الكابتن كارسليك وراح يبث لي بعضا من مخاوفه قائلا لي:

- إنني واثق أنه لا توجد أي علاقة بين جابرييل ومسز بارت فهي امرأة أعرفها منذ طفولتها وهي من أشرف وانبل النساء ولكن ألسنة الناس لا يسلم منها أحد.

وأردف يقول: إن جابرييل فتى هادئ طيب وإن كان ظريفا معها فهو متهور فالواجب ألا يغامر المرء بأية حماقة أثناء العملية الانتخابية.

- أوه.. إن هذه المشاعر الرقيقة لا يجب أن تظهر في هذا الوقت؟

- وجابرييل رجل رومانسي ما معنى أن يجلس معها في مقهى القط الأصفر؟ ثم إنه رافقها ليلة أمس بعض الوقت وقد حمل عنها من حقائبها المملوءة بالمشتريات إنني أوافقك أن هذه التصرفات قد تضر مركزه الانتخابي.

- هذا عمل قد يكسبه نقاطًا كثيرة في الانتخابات.

قال كارسليك متجاهلا ملاحظتي:

- لقد رافقتها إلى منزلها في سيارته وقد تولد لدى الناس إحساسا بأنه كان يتنزه معها.

- لا تنس يا كابتن كارسليك أنني الآن في عام ١٩٤٥ وقد حدثت تطورات رهيبة في عالم الصداقات الإنسانية.

- لكن أهل سانت لو مازالوا يتمسكون بعاداتهم وتقاليدهم ودخل جابرييل بعد لحظات وهو يتميز غيظا وكان واضحا أن كارسليك قد زوده ببعض النصائح والمحاذير وصاح يقول:

- إن كارسليك رجل ثرثار حقير، هل تعرف ماذا قال لي؟

- قلت: نعم.. نعم ولكنك تعرف أنني في حاجة إلى الراحة.

فصاح جابرييل: نعم؟ ماذا تقول؟ هل أنت تمزح؟ إنك في راحة ثم إنني في حاجة إليك لكي تسمعني، إنني أكاد أن أنفجر غيظا.

- قلت: هل تتمنى أن تفوز في الانتخابات القادمة؟

- إنني بالطبع سأفوز.

- إن الكابتن كارسليك واثق من عدم فوزك إذا تصرفت

تصرفات غير لائقة في أي مكان عام مع مسز بارت.

هؤلاء الناس الملاعين الأوغاد.

- نعم أشاطرك الراي.

- والسياسة ليست أفضل من الناس.

هذا أيضا صحيح.

- أرجوك يا نوريز لا تخاطبني بهذه الطريقة إنك تثير أعصابي هذا اليوم وإن كنت ترتاب في شأن علاقتي بمسز بارت فانت واهم لأنني لا أستطيع بحال من الأحوال أن أرتبط هكذا بأية امرأة في تلك الظروف رغم ولعي الشديد بالنساء.

كان يتكلم حقا بمرارة وأردف يقول:

- إن هذه السيدة تعيسة جدا بسبب هذا الوغد الحقير المدعو بارت، آه لو تركوني له لكنت قد كسرت عنقه ولن يعرفه أبوه بعد أن أهشم رأسه.

صرخت قائلا: هل أنت مجنون يا جابرييل؟

- إنك إذا تشاجرت في أي مكان عام سوف تتراجع أسهمك كثيرا وستفقد فرصتك في الفوز.

ضحك ثم راح يقول:

- ما يدريني؟ لعل من المناسب أن أجرب اسم بانورير

وتوقف فجأة عن الكلام مما استرعى انتباهي فإذا به قد رأى إيزابيلا تمر من تحت النافذة وحيت كلامنا وأردف يقول أن تيريزا دعتها للمشاركة في أعمال الزينة.

ثم توجه ناحيتها قائلا: إننا سنتشرف بوجودك يا آنسة

كان يتحدث بصوت ضعيف واهن، صوت إنسان مجروح ذليل مسكين يتحدث إلى من هو أعلى منه شأنا فأجابته في هدوء كعادتها قائلة: إننا اعتدنا على حضور هذه الحفلات.

ثم اتجهت إلى مقابلة تيريزا وانفجر جابرييل يقول

- ما أطوعها ما أروعها.. أخيرا.. قد نزلت من برجها العاجي من كبريائها من ماضيها المحنط إلى الحثالة من أمثالنا، أوه.. صدقني أنني أراها الآن أفضل مائة مرة من امرأة مثل تلك الفقيرة التي ورثت قصرا قديما سيتحطم عليها وهي تتصرف بعجرفة لا أدري ما سببها ويخيل لي أنها تطمع أن تكون الليدي سانت لو ولكن بم سينفعها اللقب؟ إن عصر الألقاب تولى إلى غير رجعة، يالها من

مسكينه!

صرخت في وجهه: جابرييل يبدو أنك أخطأت في انضمامك لحزب المحافظين فلماذا لا تنضم إلى العمال؟

وتجاهل ملاحظتي ثم أردف قائلا:

- إن ميلي بارت في نظر إيزابيلا ما هي إلا مجرد زوجة طبيب بيطري فهي تتوهم أنها تنازلت كثيرا حين جاءت إلى هنا، إنني أفضل ميلي بارت عن مائة فتاة سخيفة مثل إيزابيلا.

أطبقت عيني وقلت:

- هلا انصرفت يا جابرييل؟ لقد أرهقتني كثيرا بالله عليك أنا في حاجة إلى الراحة والهدوء.

★ ★ ★

كان الجميع هنا يتوافدون على غرفتي يدلون بأحاديث طويلة حول جابرييل وميللي وهكذا كانت غرفتي هي أشبه بغرفة عمليات لتصنيع الشائعات والأكاذيب وساعدني ذلك على أن أفهم ما يدور في سانت لو من أحقاد وغيرة وكراهية، كنت متأكدا أن العلاقة بينهما عادية جدا.. فهو يعطف عليها ويرثى لحالها وهي معجبة به إعجاب المراهقات، ولكنني وافقت على أن خطأ ما في نسيج هذه العلاقة ينمو ويكبر وقد يتحول عطفه إلى رغبة وشهوة فهو زير نساء، وهي أيضا من الممكن أن يتحول إعجابها إلى حب دون أن تدري فهي في أشد الحاجة لسماع كلمات غزل ومدح وهذا الوغد قد يراها صيداً سميناً.

وعادت الليدي تريسليان وقالت في لهفة وحماس:

- أوه.. هل سمعت ما يدور الآن بين الميجور ومسز بارت؟

- قلت: سمعت كلمات موجزة فقط.

قالت في أسى: إنني واثقة من أخلاق مسز بارت فهي من طراز رفيع الخلق وكم تمنيت أن تعرف ما يقال عنها

حتى تتجنب الشائعات.

- وفجأة دخلت علينا مسز بيجهام وهي تقول:

- إننا لم نعد نثق في أخلاق الدكتور بارت فقد أصبح مفرطا في الشراب أكثر من أي وقت مضى وها هي بقرة ماتت على يديه وأخرى لحقت بها بسبب إهماله وميله لشهواته.

قالت الليدي تريسليان: كنت أحدث الكابتن بشأن مسز بارت وقد رجوته أن...

قاطعتها مسز بيجهام قائلة: إن هذا هراء فلابد أن ينصح أحد مستر بارت وإلا سينهار تماما وسيفقد رصيده في البلدة كما سيفقد زوجته الجميلة التي يضربها دائما ثم يجب أن تسدي النصيحة للميجور فالأمر خطير.

قلت: إن الكابتن كارسليك تحدث معه في هذا الشأن.

- ولكن كارسليك لا يجيد مخاطبة الآخرين ومن المؤكد أن الميجور قد احتواه الغضب منه.

- نعم هذا هو ما حدث بالفعل.

قالت مسز بيجهام: إن جابرييل إنسان أحمق.. وعاطفي

وهذا ليس في صالحه أبدا.. يجب أن نتحدث معها وننصحها بالاختفاء عن طريقه فهي لا تعرف ماذا يقول الناس عنها؟

ثم التفتت إلى الليدي تريسليان قائلة:

- لماذا لا تتحدثين أنت معها ياأجنسي في هذا الأمر؟

- تغيرت ملامح الليدي تريسليان ثم قالت:

- أنا.. أوه.. يا مور... إنني لا أجيد.

- على أية حال لا يجب أن تتدخل زوجة كارسليك فهي امرأة غبية.

- لكنها ستضر بمكاسب حزبها؟

- إن هذه المرأة رغم ما تدعيه كانت تتطلع إلى معارلة الميجور لها.

- مور؟

- اسألي الكابتن نوريز إنه يعرف كل شيء يدور هنا.

ونظرت السيدتان ناحيتي فقلت في خجل:

- لا أظن طبعا.

ثم غيرت رأيي في الحال وأنا أقول مخاطبا مسز بيجهام:

- أظن أنك على حق فعلا.

وتذكرت مسز كارسليك التي تبذل المستحيل لنشر الفضائح دون خجل وقالت مسز بيجهام فجأة:

- إذا كان من حق أحد أن يتحدث عن مسز بارت فإن الكابتن فوريز هو الأجدر للقيام بهذه المهمة.

- قلت معترضا: أوه.. كلا.. كلا.

- إنها تثق بك وهي الآن تقوم بأعمال الزينة وسوف أرسلها إليك بحجة أنك تريد أن تتناول معها قدحا من الشاي وانطلقت مسرعة وعادت وبصحبتها مسز بارت وقد قالت لها: هيا صبي لنفسك قدحا من الشاي واجلسي فإن الكابتن فوريز يرغب في التحدث إليك قليلا وأما أنا فسأعود مع أجنسي لمتابعة إعداد وتجهيز قائمة الجوائز.

وخرجت السيدتان في أدب وكانت ميللي قد فرغت من إعداد الشاي وجلست بجواري وهي تقول في اضطراب:

- هيه ماذا حدث؟

قلت: أنت امرأة فاضلة يا ميللي وإننا جميعا هنا نحترمك ونقدرك لأخلاقك النبيلة والطاهرة ولكن هل تصدقين أن هناك نساء كثيرات يتحدثن عنك بشيء من الازدراء والإسفاف؟

بصراحة يا ميللي إن الناس هنا يزعمون روايات سخيفة بينك وبين الميجور جابرييل.

- عني أنا والميجور جابرييل؟

ونظرت ناحيتي في ذهول وهي تقول:

- هل تقصد أن جيم زوجي ليس هو الوحيد في ذلك بل كل الناس أيضا؟

قلت وأنا في ضيق: إن المرشح ينبغي أن يبتعد عن أية شبهة من أجل الانتخابات هل تفهمين ما أعني؟

إن وجوده معك في مقهى القط الأصفر واصطحابه لك في السيارة والتنزه معا في الشارع وأن يتولى عنك حمل حقائب مشترياتك، كلها مظاهر للأسف تساعد أصحاب ألسنة السوء على إثارة الإشاعات.

- نظرت ناحيتي في خجل وهي تقول:

- أقسم لك أنه لم يتحدث معي في أي شيء مما يظنه هؤلاء بل كان كريما للغاية ولم يكن هناك أي سوء أبدا بيننا.

أنا واثق من حسن خلقك ولكن المرشح عليه أن يبتعد عن كل هذا وهذه هي أهم عناصر المرشح الناجح.

- أنا لا أريد أن أسبب له أي ضرر حتى لو سأربح كنوز الدنيا كلها.

إنني متأكد جدا من شعورك النبيل الذي لا يقدره أحد.

سألتني في حيرة:

- ولكن ماذا بيدي أن أفعله لإصلاح الأمور؟

- حاولي ألا تظهري معه في أي مكان عام وتجنبي الحديث معه حتى انتهاء الانتخابات.

- أسرعت تقول: أشكرك يا كابتن أنك نبهتني إلى هذا الأمر فقد كنت رائعا معي.

ونهضت للانصراف إلا أن الميجور جون جابرييل قد دخل علينا في هذه اللحظة وهو يقول ضاحكا:

- أوه.. أهي مؤامرة جديدة ضدي تنسجان خيوطها معا؟

إنني عائد من أحد المؤتمرات الانتخابية وقد تحدثت فيه وقتا طويلا حتى فقدت نبرات صوتي فهلا تناولت شرابا دافئاً؟

فأنا بعد قليل سوف ألتقي مع أمهات الجنود واريد ان استرد صوتي.

قالت ميللي: ينبغي أن أنصرف الآن إلى اللقاء يا كابتن نوريز إلى اللقاء يا ميجور جابرييل.

قال جابرييل: انتظري لحظات وسوف أصطحبك إلى بيتك.

قالت في ضيق: كلا.. كلا.. إنني على موعد.

قال: إذن لا داعي لتناولي شرابا دافئا.

قالت: أرجوك لا داعي لذلك دعني أنصرف بمفردي.

كانت تنطق الكلمات في أسى وأسف وانطلقت مسرعة والتفت جابرييل ناحيتي يقول في دهشة:

- هل أخبرها أحد بشيء؟ أهو أنت؟

- نعم أنا يا ميجور.

- لماذا تقتحم حياتي الخاصة؟

انا لا اقتحم شئونك لكنني حريص على شئون الحزب.

- لماذا تفعل معي ذلك ماذا تريد بالضبط يا نوريز؟

- لأنك لو فشلت يا ميجور في الانتخابات فسوف تلقي على نفسها باللائمة وستشعر بالذنب دائما في هذا الفشل.

- إن صداقتي لها لن تعرقل فوزي في الانتخابات؟

- ربما ولكن يجب تقدير ما تترتب عليه الفضيحة.

- من الذي أوعز إليك بالتحدث إليها؟

- مسز بيجهام والليدي تريسليان.

- اللعنة عليهما وعلى الليدي سانت لو.

- على فكرة هي لم تتدخل في هذا الأمر أبدا.

- أقسم لك لو هي تدخلت فسوف أتمسك بميللي وأصطحبها معي لقضاء عطلة الأسبوع ولن أعبأ بالانتخابات وما قد يترتب عليها.

- يالها من فكرة رائعة.. رغم أنني كنت أظن أنك تتطلع للفوز.

راح يضحك ملء شدقيه ويقول:

- لا عليك سوف أحقق فوزا ساحقا.

في تلك الأمسية التي كانت من أروع الأمسيات تدفق الأهالي إلى الجرانج بعد انتهاء المباراة التي أعقبتها حفلة راقصة.

وكانت تيريزا قد دفعت عربة إلى مكان مناسب أستطيع أن أشاهد الحفل من خلاله دون عناء أو جهد وكان الجميع في سعادة غامرة وجابرييل يطوف بينهم يروي مواقف وقصصًا وبطولات ويلقي بدعابات ونكات وهو يضحك في سعادة وكان ظريفا للغاية خاصة مع السيدات وأصبحت الأمور تسير كما نريد ونبتغي.

كانت الليدي سانت لو حاضرة مع الجميع وقد أحاطت نفسها بوقار ومهابة كعادتها دائما وكان الجميع يتطلعون إليها في شوق وشغف كأنها ملكة بريطانيا إلا أنها سرعان ما غادرت الحفل مع أختها وزوجة أخيها بينما بقيت إيزابيلا لمساعدة تيريزا ومسز كارسليك ومرت حوالي عشرين دقيقة وقد دفع روبير عربتي واصطحبني إلى المنزل وقد قلت له ونحن في الشرفة:

- أرجوك دعني هنا.

- هل تريد أي خدمة أخرى؟

- كلا إن الجو الليلة رائع وجميل.

واستدار ليعود إلى مكان الحفل وجلست بمفردي أفكر في حياتي وفي جينفر وما حدث لنا من حرمان وبعد لحظات من هذه الرحلة الخيالية لمحت شبحًا يتسلل ناحيتي اكتشفت في التو أنها إيزابيلا وأقبلت نحوي وجلست كعادتها على المقعد الحجري وساد الصمت بيننا لا يتحدث أحدا منا ومرت بنا نسمة هواء تطايرت منها خصلات شعرها فرفعت يدها الرقيقة لتسويتها فنظرت إليها فوجدتها جميلة للغاية فقلت لها:

- أوه.. إن هذه الليلة تصلح لعودة روبيرت أليس كذلك؟

فكرت قليلا ثم قالت: نعم كان يجب أن يأتي الليلة.. كان يجب أن يفعل ذلك.

كان صوتها مشحونا باليأس وقلت ناصحا لها:

- لا داعي لأن تتعجلي قدومه فدائما ما تأتي الرياح بما لا تشتهي السفن.

- ولكن روبيرت يجب أن يعود.

وكدت أسألها عن سبب جزعها ولهفتها ولكن فجأة أقبل جون جابرييل يقول: أرسلتني مسز نوريز لكي أسألك إن كنت تريد شيئا أم لا؟

قلت: كلا.. كلا.. أشكرك على أي حال.

وقال وهو يبدو أنه لم يلاحظ وجود إيزابيللا:

- يالها من أمسية رائعة إنها أمسية كان يتطلع إليها كازانوفا نفسه وساد الصمت حولنا إلا من الموسيقى القادمة من الحفل القريب منا وحين لمح إيزابيلا راح يقول في مرح:

- هل تسمحين لي بهذه الرقصة يا عزيزتي؟

نهضت الفتاة بأدب، وقالت: بكل سرور.

وانصرفا معا وهما في حالة توتر لاحظته جيدا، وعدت أدراجي أفكر في جينفر وتساءلت في نفسي أين هي الآن؟ وماذا تفعل؟ أهي سعيدة أم حزينة؟ هل أحبت رجلا غيري؟ تمنيت ذلك فعلا ومرت بي تلك الرحلة الخيالية في لمح البصر وتنبهت من خيالاتي على صوت وقع أقدام صادرة بقوة وكان صاحبها هو الميجور جابرييل الذي أقبل يترنح يمينا وشمالا وأدركت أنه ثمل من فرط الشراب ثم راح

يهدي بصوت أجش قائلا:

- إن هذه الفتاة كما قلت لك ليست أفضل من غيرها إن رأسها تكاد تلمس نجوم السماء وإن كانت قدميها ثابتة على الأرض.

قلت في غضب: ماذا تعني؟ وأي فتاة تتحدث عنها هكذا؟

هل أنت مخمور يا جابرييل؟

- كلا.. لست مخمورا ولكن هناك أشياء تجعلك تبدو كما لو كنت ثملا عربيدا، إن هذه الفتاة إيزابيلا مثلها مثل غيرها فرغم كبريائها نجحت من إزاحتها من برجها العاجي وأسقطتها من شاهق وحين حاصرت خصرها وجدتها باردة مثلهن جميعا.

- قلت محتجا: ماذا فعلت لإهانتها مرة أخرى؟

ثم إنها فتاة رقيقة.

- فتاة.. كلا إنها امرأة وليست آنسة فهي تتصرف تماما كامرأة متزوجة تعرف كل شيء.

وأعترف أنني شعرت بالحقد عليها لسنوات عديدة وقد

عذبني كثيرا بضحكته التي هزت أركان منزلنا وكان يبدو أمامي كوغد سافل حقير ليست لديه مبادئ أو أخلاق وقد رماني بنظرة ازدراء اكتويت منها كثيرا ولم أنسها أبدا ما حييت وسرعان ما انصرف وعادت إيزابيلا تجلس بجواري على المقعد الحجري وكانت كعادتها هادئة، ولاحظت أنها في حاجة لتهدئة خواطرها فيبدو أن شيئا ما قد هز كيانها ولكنني لا أعرفه وربما هي نفسها لم تكن تعرف.

والتفت نحوها أقول في بطء:

- عـزيـزتي إيـزابيـلا مـاذا دهاك هل حـدث لك شيء خطير؟

فكرت كعادتها قبل أن تجيب: لا أدري.

وفجأة وضعت يدها في راحة يدي وكانت لفتة رائعة تدل على فرط ثقتها في شخصي المتواضع ولم أنس هذه اللفتة أبدا واستمرت يدها في راحة يدي نحو ساعة كاملة حتى انفض الحفل وغادر الجميع المكان وعادت هي إلى بيتها في سيارة إحدى السيدات.

★ ★ ★

الفصل السابع عشر

ظننت أن الميجور جون جابرييل سوف يتحاشى لقائي في الأيام القادمة ولأنني لم أعرف شخصيته جيدا فقد خاب ظني وأقبل إلى غرفتي وقال:

- كنت أتمنى أن أتحدث معك، أشعر أنني تصرفت ليلة أمس كالأبلة.

- قل ما تريد إنك في تقديري وغد سافل حقير.

- ماذا قالت لك؟

- لا شيء.

- هل بدا عليها التوتر والغضب؟ عليها اللعنة لقد ظلت في رفقتك زهاء ساعة كاملة وبالتأكيد أنها تكلمت.

- بل إنها لم تنطق بكلمة واحدة.

- إنني أراهن بنصف عمري لكن....

وتوقف عن الحديث فجأة.. ثم أردف يقول بعد لحظات:

- أرجو ألا تظن أنني أغويتها إنما أنا غازلتها تحت ضوء القمر وهذا أمر طبيعي ناحية أي فتاة.

ولم أشأ أن أرد عليه ثم استطرد قائلا:

- صدقني يا نوريز إنها استسلمت لي في سهولة ويسر شأنها شأن أي فتاة تبيع الهوى.

ثم راح يقطع الشرفة ذهابا وإيابا وهو يقول في توتر:

- ولكن هل أنت واثق أنها لم تتكلم في أي شيء معك؟

- هل أقسم لك أنها لم تتكلم معي في أي شيء.

- قال وهو يضع رأسه بين يديه: كم تمنيت أن أفضحها ولكي تنزل من عليائها وكبريائها وأذهب بها إلى الجحيم.

قلت: كفى.. كفى يا جابرييل هل فقدت عقلك؟

قال: لو كنت قد عشت ما عشته أنا ما قلت لي: إنني فقدت عقلي ليتها لم تولد أبدا هذه الحقيرة.

أنا لا أظن أبدا.. إنها.

قلت: وماذا تظن أيها الوغد الحقير، إنك لا تحفل سوى بملذاتك وشهواتك ومغامراتك الصبيانية ولو استمرت أخلاقك على هذا النحو فلا أمل في برلمان محترم أبدا إذا كان به أمثالك.

- قال: الواقع أنني تورطت.. فهل تنصحني بأن أعتذر

لها وأزعم أنني فقدت عقلي؟

- قلت: لا شأن لي بما تنوي، إن لك خبرة طويلة في عالم النساء وبمقدورك أن تخرج من ورطتك بخبرتك وتجاربك الكثيرة.

- أتظن أنها تعتبرني وغدًا أو خنزيرًا قذرًا إنني لم التق من قبل مع أي فتاة فهل تعتقد أني خدشت مشاعرها؟

- قلت له: أنا لا أعرف رأيها فيك حتى أنصحك، ولكنها آتية على بعد خطوات فتغير لون وجهه ونظر إلي في ذعر ثم ابتعد ووقف أمام المدفأة كأنه يصلي فبدا أمامي ذليلا مهينا وكنت سعيدا لأن أراه هكذا ثم قال:

- إنها ستنظر إلي كحثالة.

وأقبلت إيزابيلا ولم تلتفت إليه كما كان يتوقع.. وكانت كالعادة هادئة رزينة عاقلة وقد حملت معها رسالة إلى تيريزا وحين أخبرتها أن تيريزا عند آل كارسليك أسرعت إلى هناك وهي تلقي علينا نظرة رقيقة وما إن غادرت المكان حتى صاح جابرييل في غضب يصفها بأقذر الأوصاف والنعوت وحاولت أن أوقفه إلا أنني فشلت.

وصاح يقول: اسكت يا نوريز ليس هذا من صميم

عملك إنني سأنال منها حتى لو فقدت عمري كله.

وخرج من الغرفة كالأبله وأغلق الباب بعنف وقوة.

وأردت أن أتحدث مع إيزابيلا فدققت جرس الخادم لكي يبلغها رغبتي ولكنني وجدتها أمامي وجلست على المقعد الحجري وعقدت يديها الطويلتين فوق حجرها، ونظرت إليها أتأملها هل تعكر صفوها بعد محادثتها ليلة أمس مع جابرييل؟ إن فضولي يدفعني لكي أسألها وقلت لها:

- هل كل شيء على ما يرام يا إيزابيلا؟

نظرت ناحيتي في استغراب فاستطردت قائلا: إن الميجور كان مضطربا وهو يريد أن يعتذر إليك عما حدث ليلة أمس.

قالت: ولماذا يفكر في الاعتذار؟

قلت مترددا: لأنه يظن أنه أساء التصرف معك.

قالت في هدوء: حقا.

ولم تزد على ذلك بكلمة واحدة وكنت في حيرة من أمري، هل أستمر في استجوابها أم لا؟ إن الأمر كله لا يعنيني في شيء ولكنه فضولي وآه من فضولي، فقلت لها

في حماس:

- ألا تعتقدين أنه كان جلفا معك ليلة أمس؟

- قالت: لا أعرف.. صدقني أنا لا أعرف، ليس لدي وقت للتفكير فيما حدث.

قلت: ألم يؤذ مشاعرك بأي تصرف؟

قالت بعد تفكير: كلا.. كلا.. لم يحدث شيئا يتطلب اعتذاره، أكان يجب أن أتضايق؟

وعدت أنظر إليها نظرة جديدة، إن جابرييل وصف لي شفتاها بنبرات مراهق ووجدتها كما قال مثيرة ولافتة للعيون إنها تشتعل جمالا ثم ماذا حدث لها؟ هل داعبها الميجور واستسلمت له؟ هل تلذذت واستمتعت بعبثه؟ فهل استطاع هذا الوغد أن يضع يده على مواضع أنوثتها ويفجر فيها بركان شهوتها؟ ماذا فعل هذا الملعون؟ وسألتني في هدوء هل أحب الميجور أم لا.

قلت لها في حماس وتحت تأثير كراهيتي له: كلا أنا لا أحبه.

قالت في بطء: إن مسز كارسليك لا تحبه أيضا.

وتضايقت أن تشبهني بهذه المرأة الملعونة سليطة اللسان

وسألتها: وماذا عنك يا إيزبيلا؟ هل يروق لك؟

لزمت السكوت فترة طويلة ثم انطلقت تتحدث في طلاقة:

- أنا لا أعرفه ولا أدري عنه شيئا لهذا لا أستطيع أن أقول هل يروق لي أم لا؟

وأعترف أنني لم أفهم ماذا تقول وما هي مشاعرها نحوه فقد تحدثت دون تحديد

ثم إن تيريزا أخبرتني من قبل أنه رجل لديه جاذبي للنساء فهل انجذبت إيزبيلا إليه وإن ترددت لأنه رجل أجنبي غريب عليها وقطعت هي حبل خيالي وقالت في رقة:

- هل تعرف سر ذبول الوردة الحمراء سريعا في الماء؟

وسألتها عن أحب أنواع الزهور إليها فقالت:

- البنفسج والحمراء والقرنفل.

استغربت تلك الأنواع وقلت لماذا ذكرتها هي بالذات وأجابتني بأنها لا تعرف فقلت:

- أنت كسولة لا تبذلي جهدا في التفكير لمعرفة الأسباب.

- هل تظن ذلك حقا؟ حسنا على أية حال سأحاول.

واعتدلت في مقعدها وقالت: إنها تعطيني إحساسا بأنها ملساء كالحرير وذات أريج جميل.. ثم إن الورد عمره طويل وهو في أغصان الشجر وسرعان ما يموت إذا وضعناه في كوب ماء وتحدثنا كثيرا عن الزهور وألوانها وعبقها وأثناء حديثنا لمحت رجل يرتدي ثيابا عسكرية وقبعة فوق رأسه أدركت على الفور أن اللورد سانت لو قد عاد.



الفصل الثامن عشر

كثيرا ما يتخيل المرء أحداثا وقعت له في الماضي وتذكرت حيويتي ونشاطي وأنا أتأمل اللورد سانت لو وهو يشق طريقه وسط المراعي وتأكدت أن إحساس العجز يطل برأسه ملازما لي وسيظل معي للأبد لا مناص منه ولا مهرب.

وقلت في نفسي: أوه يا إيزبيلا! إن هذا فراق للأبد، ثم قلت في صوت مسموع: إيزبيلا إن أحدهم قادم، ونظرت دون أدنى اهتمام إلى ما أنظر إليه وحدث أن سرت رعشة في جسدها وقالت:

- أوه إنه ريوبيرت.. ريوبيرت.

إن ملامحه لم تظهر لنا ولكن إحساسها كان صادقا فقد تأكدنا أنه هو وأقبل نحونا بخطوات ثابتة وتقدمت هي منه في مشهد سينمائي رائع وتلاقيا وتشابكت أيديهما وكم تمنيت أن أكون أنا هو.

ياله من منظر رائع وجميل وظل كلاهما ينظر إلى الآخر دون أن ينطق أحد بكلمة فقد كانت لغة العيون تفضح مشاعرهما وعواطفهما فها هي أحلامهما قد أوشكت على

أن تتحقق واستدارت إيزابيلا على عقبيها ناحيتي وهي تقول في طرب وسرور:

- هذا هو ريوبيرت.. ريوبيرت.

واقترب هو مني عدة خطوات وأشهد أنه كان وسيما إلى حد لم أشهد له مثيلاً وكان طويل القامة عريض الكتفين صاحب صوت أعزب رقيق يشع ذكاء وإرادة وصلابة.

وراح يعتذر عن حضوره المفاجئ قال ذلك وهو يغمز إليها بعينه ثم أردف يقول: أوه.. إنك ازددت جمالا منذ أيام المدرسة.. فمازلت أتخيلك وأنت طفلة صغيرة وقد تضفرت خصلات شعرك خلف ظهرك.

قالت له في بطء: لاشك أنني كنت قبيحة للغاية.

وأبدى اللورد سانت لو رغبته في لقاء أخي وزوجته فهو مفتون بلوحات أخي ويتمنى أن يلتقي به وأخبرته إيزبيلا أن تيريزا زوجة أخي موجودة حاليا عند أسرة كارسليك وأنها ستذهب لإبلاغها وسألته إن كان يعتزم رؤية مستر كارسليك وزوجته أيضا ولكنه لم يبدي اهتماما لذلك فقالت إيزابيلا: إنهما يتشوقان لرؤيتك.

فقال اللورد: إنني عائد في إجازة لمدة شهر واحد فقط.

فقالت: أهو ضروري عودتك مرة أخرى للميدان؟

- نعم.

- هل ستعود بعد أن تضع الحرب أوزارها مع اليابان؟

- هذا مرهون بتطورات الأحداث.

وخيم الصمت عليهما وراح كلا منهما يفكر فيما سيفعله في هذا الشهر وذهبت لإحضار تيريزا وجلس هو بجواري يحدثني عن ظروف الحرب وحدثته أنا عن وجودي هنا أسبابه ونتائجه وعلاقاتي الكثيرة مع أهل هذا المكان وحدثته عما يدور وراء الكواليس الانتخابية من سفالات وبذاءات وتحدثنا طويلا عن السياسة وبريطانيا العظمى وتحدثت له عن أحلامي في السياسة ورغبتي حول أهمية فوز تشرشل وأن يعود السلام ويعود الجنود إلى أسرهم ويعود الازدهار للاقتصاد ويسترد الناس عافيتهم، حدثته عن أملي في أن تحيا بريطانيا حياة جديدة يرفرف حولها السلام العادل الشامل بعيدا عن الجراح والدماء والقتل.

وأقبلت تيريزا وجابرييل وكارسليك وزوجته وتكلم زوجها وأبدى سعادته للقاء اللورد سانت لو وقدم إليه الميجور

جابرييل وتبادلا التحية وتمنى له النجاح في الانتخابات القادمة.

ووقفا معا تحت ضوء المصباح فتبين لي الفارق فاللورد وسيم مشرق الوجه وجابرييل قصير دميم المنظر وكان اللورد يبدو شخصية جبارة رائعة والآخر انتهازي محتال.

ولاحظت أن إيزبيلا أيضا تقارن بينهما واستقرت عيناها على فتاها الوسيم صاحب الطلعة البهية وانفرجت أساريرها.

* * *

توطدت أواصر الصداقة بيني وبين اللورد سانت لو الذي انجذب إلى صداقتي في لمح البصر فهو بطبعه لا يميل إلى مجالسة النساء وكان يتردد عندي من وقت لآخر وقد أخبرني أنه بصدد أن يحقق حلمه الذي انتظره طويلا.. وفي أحد لقاءتنا قال لي:

- إنني تعاملت مع إيزبيلا بأسلوب سخيف وأنه يستغرب كيف يعد طفلة بالزواج ثم يتمسك بهذا الوعد الصبياني.

- لكنني أعرف حالات كثيرة من هذا النوع.

- لقد كنت أشعر أنني في حاجة إليها ثم سرعان ما اكتشفت إنها غريبة الأطوار.

- لقد تربيت هنا في هذا المكان وأحببته كثيرا وودت لو تزوجت إيزابيلا ولكن لا أعرف ماذا دهاني.

وعلى أية حال بعد مرور خمسة أيام من هذا الحديث أعلنت خطوبة إيزبيلا على اللورد سانت لو وقد أكدت إيزبيلا أن الخبر سينشر في جريدة التايمز أوسع الصحف انتشارا وتوزيعا.

كانت إيزبيلا سعيدة للغاية وفي قمة فرحتها وهكذا كانت أمها أيضا مسز بيجهام أما أنا فقد لاحظت شيئا خفيا في نفس اللورد سانت لو وأقبلت إيزبيلا تقولي لي:

- إن كل شيء أصبح على ما يرام الآن، أستطيع الآن أن أنام في هدوء وللأسف كنت أعرف أن إتمام زواجها من ابن عمها تتضاءل فرصته بل كنت واثقا أنه لن يتم أبدا.

وأردت أن أعرف رأي الميجور جابرييل فقد لاحظت أنه لا يحب اللورد الذي يلتف الجميع حوله ويتهامسون حول عراقته وأصالته ووالده وسألت جابرييل وأجابني قائلا:

- إنهم يا عزيزي أغبياء.

- ولكن ما هو رأيك؟

انفجر ضاحكا وقال: إن إيزبيلا تريد زواج لقب لا رجل وهي لها العذر في ذلك فكلنا نسعى للحصول على الألقاب.

- أنت دائما تثير استغرابي.

- قال في هدوء: هناك أشياء لا يحصل عليها المرء إلا عن طريق الميراث ورغم هذا فإن وجود اللورد هنا عامل هام في الدعاية لحزب المحافظين.

- هل تظن أنه سيفكر في دخول الانتخابات؟

- كلا فهو ثري صاحب أطيان وثروة هائلة ولا يفكر في ذلك أبدا.

- هل تحب اللورد سانت لو يا جابرييل؟

- وهل هو يحبني؟

- لا أظن .. إنه يحبك.

- ومع ذلك فسوف يدعوني للعشاء فأنا نائب قريته القادم.

- قد لا تفوز في الانتخابات.

- كلا سأفوز فوزا ساحقا.

- أنت مغرور.

- أنا واثق من نفسي.

* * *

الفصل العشرون

كان جابرييل شديد الثقة من فوزه الساحق في الانتخابات وكان يتعجب إذا سمع من يجاهر بخوفه من فشله وإخفاقه.

على الرغم من هذا لم يكن يضع فتاة تعمل ساقية في إحدى الحانات في حساباته فهي التي ساعدته في التقدم والانطلاق رغم عدم معرفته بها من قبل، كانت بوبي هي عشيقة جميس بارت وكان هو يفرط في الشراب حتى ثار ذات مرة كالثور الهائج فطردته الفتاة وصممت على قطع علاقتها به وكان هذا سببا كافيا لقسوته مع زوجته وكان يضربها بعنف دائما وقد أراد ليلتها أن يخنقها فنزعت أصابعه من حول عنقها وهربت إلى أين لا تدري! فليس لها أهل أو أصحاب أو حتى المحلات التي كانت قد أغلقت أبوابها وبدون أن تفكر اتجهت مسرعة إلى جابرييل كطفل يحتاج إلى أمان وحنان والدته أما جابرييل فقد أحسن استقبالها فهو معروف بميوله للنساء ولهذه المرأة بالذات وقد طرد زوجها من بهو الفندق وهو يصرخ في وجهه مؤكدا أنه لا يستحق زوجة مثلها، وتشاجر الرجلان وسقطا معا على الأرض وأخذ جابرييل ميللي من يدها وأغلق عليها

حجرة في داخل الفندق ووعدها ألا تعود إليه أبدا.

وانتشر الخبر في المدينة كالنار في الهشيم وقالوا إن الطبيب اكتشف العلاقة بين الميجور وزوجته وأنها باتت معه في نفس الفندق وفي غرفة واحدة واغتاظ كارسليك وراح يهذي قائلا:

- أوه.. لقد فشلنا إن الانتخابات على الأبواب والفضيحة تدنو على رءوسنا بعنف يالها من مصيبة!

وصاحت زوجته تقول: ألم أخبرك أنه حقير وأحمق.

وقال أخي: إن جابرييل تصرف بلباقة وذكاء وأقبل جابرييل غير عابئ بما يدور حوله وحين سأله شقيقي عن مصير ميللي أخبره إنها في الفندق ثم استدار ناحية تيريزا وقال: إن الوقت لم يفت بعد.

قالت له: هو كذلك.

قال: لقد حدث ذلك ليلا والناس لا تعبأ بما يحدث في الليل دائما.

صاح كارسليك في ذهول:

- ميجور جابرييل.

قال جابرييل: إنك صاحب خيال سخيف، أنا لم أنم معها في نفس الغرفة وكان هذا هو حديث الجميع بالفعل وقال كارسليك:

- ليتها تختفي وتبتعد عن هنا ولكن هذا سيثير الشكوك أيضا.

قال جابرييل: يجب أن نفكر في شيء آخر.

- ماذا تعني؟

- يبدو أنك لا تتعاطف معها.

قال كارسليك في كبرياء:

- لابد لنا أن نبحث عن حل لهذا المأزق.

قال جابرييل: إذن أنت لا تضع ميللي في الحسبان فهي امرأة تعيسة يقسو عليها زوجها ونحن شهود على ذلك وأنت تفكر دائما أن الانتخابات هي الأهم والسياسة هي الأفضل، إننا يجب أن نبحث عن راحتها وأقسم لكم إنني لم أغازلها أبدا فهي سيدة شريفة وعفيفة.

قالت مسز كارسليك: لنفرض أن زوجها طلب الطلاق.

- إذا فعل ذلك فسوف أتزوجها.

صاح كارسليك: كلا.. كلا لا داعي لهذه الحماقة يا جون.

- هذا هو رأيي ولتذهب الانتخابات إلى الجحيم.

وما كاد ينتهي من خطابه حتى دخلت إيزبيلا وقالت له في رفق:

- أظن أن الأمور أصبحت على ما يرام إن مسز بارت موجودة الآن في القصر.

- صاح كارسليك: في القصر!

- نعم.. حين سمعنا عما حدث ذهبنا إلى الفندق وصحبناها إلى القصر وتمت العملية كما عرفت بعد ذلك بطريقة لطيفة وإن دلت فإنما تدل على أن إيزبيلا تتمتع بقدر كبير من الذكاء حيث كانت الليدي سانت لو تحظى باحترام وتقدير كبير من أهل المدينة وإذا رغبت في شيء تمنى الجميع أن يحقق رغبتها ومضت في سيارتها الديلمر وبصحبتها إيزبيلا وتوجهتا معا إلى الفندق وطلبت أن تلتقي على الفور مع مسز بارت وهبطت ميللي درجات السلم بينما كانت دموعها تتدفق بغزارة على وجنتيها وأطرافها ترتعش وأوصالها ترتعد وقد ألقت بنفسها على صدر

السيدة سانت لو وقد قالت لها في صوت مسموع:

- لقد حزنت لما حدث لك بالأمس يا ابنتي العزيزة وكان ينبغي على الميجور جابرييل أن يأتي بك إلى القصر فورا دون تردد ولكن يبدو أنه رأى ألا يثير إزعاجنا.

- أوه.. يا سيدتي إنك رقيقة القلب دافئة المشاعر ما أروعك حقا! وتلون وجه مسز بارت وقالت: أوه.. أنا لم أحضر شيئا من ملابسي فأسرعت الليدي سانت لو تقول في أسى:

- ما أغباني.. لا عليك في بيتنا كل شيء تحتاجين إليه اطمئني.

- ولكن.

ولاحظت الليدي ارتباك مسز بارت إلا أن الليدي سانت لو قالت لها:

- ماذا بك إنني أخبرتك ألا تقلقي ففي بيتنا كل ما تحتاجينه هيا اتبعيني إلى سيارتي لنذهب إلى القصر.

وما إن تحركت مسز بارت وراء الليدي حتى رأت أمامها زوجها الأحمق جيمس بارت الذي كان يتأهب للانقضاض

عليها غير أنه رأى أمامه الليدي سانت لو فتسمرت قدماه وتجمدت يداه كأنه قد فقد حواسه.

وقالت الليدي في ثقة:

- هيا يا ميللي احزمي حقيبتك.

اندفعت ميللي تصعد الدرج لإحضار حقيبتها بينما راحت الليدي تتحدث مع جيمس قائلة: لقد كنت وغدا يا جيمس مع زوجتك وقد فقدت عقلك بسبب إفراطك في الشراب ولسوف أنصح زوجتك بالانفصال عنك لأنك تزعم أقاويل وأكاذيب تعرف أنها غير حقيقية.

نظر إليها جيمس في توجس وهو يقول:

- حقا إنني فقدت عقلي ليلة أمس.

- إذن عليك أن تنفي هذه الأكاذيب وإلا نصحت الميجور جابرييل أن يرفع دعوى قضائية ضدك.

أثناء ذلك هبطت الليـدي درجـات السلم وهي تحـمل حقيبتها فأخذتها الليدي واتجهت بها ناحية باب الفندق الرئيسي وصاح بارت يقول:

- أوه.. إلى أين ستذهب معك زوجتي؟



أجابت الليدي في ثقة: إلى قصرنا يا جيمس هل تمانع في ذلك؟

ولم يعلق جيمس بكلمة واحدة وأردفت الليدي تقول له:

- أقلع عن الشـراب وإلا سـتـفـقـد كل شيء هذه هي نصيحتي لك.

وركـبت مـيللي السـيـارة بجـوار الليـدي سـانت لو وإلى جوارهما إيزبيلا وانطلق الموكب أمام جميع الناس.

وراحت ألسنة أهل البلدة تردد خزعبلات بعضها يؤكد العلاقة الشائنة بين ميللي وجابرييل خاصة أن ميللي نزلت في الفندق الذي يقيم فيه، والآخر أكد أن تصرف الليدي كان شأنا سياسيا، والواقع أن الليدي كان سلوكها أخلاقيا حيث إنها لا تساند أصحاب الخطيئة، وهذا هو ما يعرفه الناس عنهـا إلا أن قلة منحـرفـة هي التي كـانت تردد هذه الأكاذيب والتخاريف واستقرت الأمور وقضت ميللي وقتا في القصر بصحبة الليدي وإيزبيلا معا.

كانت إيزبيلا تروي ذلك في طرب وكان كارسليك يسمع القصة في سعادة وسرور.

وصـاح كـارسليك قـائلا: مـا أروع الليـدي لقـد أنقذت

الحزب من السقوط والفشل الذريع إنها سيدة ذات ذكاء شديد وتدخلت إيزبيلا قائلة:

- إن الليدي لم تكن تفكر في مستقبل حزب المحافظين بل أنا التي دبرت لها هذا الأمر.

فقال لها الميجور: أوه.. أفعلت هذا حرصا على الانتخابات ومصلحة الحزب؟

قالت في دهشة: مصلحة حزب المحافظين؟ كلا لقد فعلت هذا من أجلك.

- من أجلي أنا؟

- الا ترغب في أن تفوز فوزا ساحقاً.

بدت ملامح الدهشة والاستغراب على وجه الميجور الذي همس قائلا بصوت مسموع:

- أتعتقدين هذا؟ إنه أمر يدعو للعجب حقا.

★ ★ ★

الفصل الحادي والعشرون

قلت من ذي قبل: إني لا أروي هذه القصة من أجل استعراض ما حدث في كواليس العملية الانتخابية فأنا بطبعي لست سياسيا بل لا أميل إلى العمل السياسي ولا أحب الانخراط فيه، بل إنني أكتب عن قصة عشتها بمشاعري وأحاسيسي بعيدا عن السياسة وأهلها.

وجاءني الميجور جابرييل وهو يعاني من شدة الإجهاد والإرهاق بعد أن ألقى عدة خطب في مؤتمرات أقامها الحزب إلا أنه كان قويا عنيدا صلبا كعادته لا يلين ولا يضعف ولا يستكين، وراح يقول كأنه يهذي بصوت مرتفع:

- ما أسخف ما نقول ونردده أمام هؤلاء البلهاء إننا نتحدث عن خيالات في أرض الواقع ويصدقها هؤلاء السذج ولكنهم للأسف يستحقون ما يحدث لهم على يد هذه الحكومة الملعونة لأننا جميعا كذابون.

أما تيريزا فقد أجهدت نفسها في بث الدعاية للحزب من خلال سيارتها صباح يوم الانتخابات الذي شهد عاصفة هوائية شديدة كانت مصحوبة بأمطار رعدية دعتها لارتداء معطفها وحضرت إيزبيلا لزيارتنا بعد تناول الفطور وقد

تبلل شعرها من المطر وقالت:

- إنني سأتولى عملية نقل الناخبين إلى أماكن الصناديق وسوف يرافقني ريوبيرت وقد طلبت من مسز بارت أن تجلس بجوارك هنا فهل يزعجك وجودها؟ أم أنك تريد أن تبقى هنا بمفردك؟

والحقيقة أن زيارة مسز بارت لا تزعجني ولكنني كنت أتطلع لقسط وافر من الراحة بعد أن زارني أناس كثيرون في الأيام الأخيرة.

ولكن أردفت إيزبيلا تقول:

- كانت عمتي أجنسي تريد أن تحضر هنا لتبقى برفقتك ولكنها أرادت ألا تزعجك وقررنا أن تبقى معك مسز بارت فقط والحقيقة أننا أردنا أن تؤانسها وتنصحها وتخفف عنها خاصة وإنها تلوم نفسها على ما حدث خوفا على مستقبل الميجور السياسي وللأسف فإن حالتها النفسية تتدهور بسبب إحساسها بالذنب وتقول إنها كان يجب أن تتحمل رذالات زوجها وحماقاته حتى تمر العملية الانتخابية في هدوء ودون أن تهدد مصير الميجور لأنه لو فشل فسوف تشعر أن هذا حدث بسببها ولن تغفر لنفسها هذا طوال

العمر.

وأردفت إيزبيلا تقول: لهذا فكرنا أن تحضر لتجلب معك هنا.

- هل تواجه أية مشكلات مالية الآن؟

- كلا إنني وجدت لها عملا كوصيفة في منزل سيدة نعرفها جيدا وهي تقيم في إقليم سوسكن، ووسيلة المواصلات بينها وبين لندن سهلة ومريحة وستتقاضى راتبا كبيرا يساعدها على الحياة حتى إذا أرادت الطلاق تمكنت من الإنفاق على مطالب المحامين ثم استطردت تقول؛ والآن سوف أتحدث معها بشكل جدي وحين توجهت إلى المنزل استدارت على عقبيها وقالت:

- بالمناسبة أنا سوف أتزوج من ريوبيرت الأسبوع القادم وسوف نقضي معا أسبوع ثم يعود إلى بورما.. ونتمنى أن تنتهي الحرب.

- قلت لها: هل أنت سعيدة يا إيزبيلا؟

- لا أعرف فالمرء أحيانا يتمنى تحقيق حلمه وإذا ما تحقق يشعر ناحيته بالسأم والملل ورغم ذلك أخشى ألا يتحقق حلمي ثم إنني سعيدة لاشك، فأنا أقيم في قصر

عريق وزوج وسيم.

وصاحت فجأة وهي تقول:

- يا إلهي.. لقد سرقني الوقت لقد حددوا لي عشرين دقيقة فقط للحضور إلى هنا.

وحضرت ميللي في عصر اليوم وهي ترتدي معطفا وقبعة وقد خلعت كلا منهما برفق ورأيتها فاتنة ساحرة لابد وأن يقع في غرامها أي إنسان وبدأت حديثها معي بقولها:

- أرجو ألا تكون قد تعذبت بوحدتك؟ هل أحضروا لك الغداء؟

ألا تريد شيئاً مني أحضره لك؟

قلت لها: إن كل شيء هنا على ما يرام.

- قالت: سنتناول الشاي معا، في أجمل هذا.

وبدا عليها التوتر ثم قالت مرة أخرى:

- هل تعتقد أنه سيفوز يا كابتن نوريز؟

- مازالت أمامنا فسحة من الوقت لمعرفة ذلك.

- ولكن أتظن أنه سيفوز؟

- إن أمامه فرصة كبيرة للفوز.

- لو لم أكن قد ارتكبت حماقة لكان فوزه مؤكدا وساحقا.

ما أغباني ليتني لم أفعل ذلك.

قلت لها في محاولة يائسة للترفيه عنها:

- لو كنت مكانك لفكرت في أمور أخرى.

- كيف هذا؟

- أنت تطلب مني ألا أبالي بالأمر إذن يا كابتن وهذا شاق وعسير.

- عزيزتي ميللي أنت لا تملكين مفاتيح البرلمان فلا داعي لكي تلومي نفسك.

- هذا صحيح ولكن لن أغفر لنفسي هذا الذنب إذا هو فشل.

- يبدو لي أنك تحبين الميجور، أليس كذلك؟

- انسابت الدموع من عيناها ثم قالت في رقة:

- نعم وأتمنى أن أضحي بأي شيء في سبيل سعادته فأنا لم ألتق رجلا مثله أبدا.

- أرجو ألا تتعلقي به أكثر من ذلك؛ لمصلحتك يا ميللي؟

وتناولنا أقداح الشاي وتحدثنا معا عن الأفلام السينمائية فقد كانت تعشقها ثم تحدثنا مرة أخرى عن الانتخابات التي كانت تتوارد علينا أخبارها من حين لآخر ثم أقبل أخي روبير وهو متألق الوجه حيث رأى شجرة مقطوعة في إحدى البقاع المنبسطة بالغابة، وكان هذا المنظر الساحر هو الذي أطربه حيث كان يبحث عنه منذ فترة لكي يرسمه بريشته على لوحاته الفنية الجميلة.

★ ★ ★

الفصل الثاني والعشرون

دخلت تيريزا في اليوم التالي وقد بدت عليها علامات الإرهاق.

وقالت: انتهت الانتخابات وفاز الميجور.

قلت: بأغلبية أم لا؟

قالت: بأغلبية بلغت مائتين وأربعة عشر صوتا.

همست قائلا: أوه.. إنها نسبة ضئيلة.

قالت: هذا صحيح وكارسليك أكد أن لولا قضية مسز بارت لفاز فوزا ساحقا.

وأردفت تقول: ثم لا تنس أن العمال حققوا فوزا ساحقا في كل المناطق لهذا فإن فوزنا هنا نادر وغير متوقع.

- كان جابرييل يتوقع ما حدث.. لذلك فإن ميللي عليها أن تنام قريرة العين دون أي إحساس بالذنب فقد فاز الميجور.

- هل تعتقد ذلك؟

- تيريزا أنت خارقة الذكاء، إن المسكينة ميللي تعشق الميجور عشقا غريبا.

- أعرف ذلك وليس هذا غريبا فكلاهما ينشد السعادة المفقودة.

- لكن الميجور أفاق لن يتزوجها لأنه لن يستفيد منها فهو قد أخبرني إنه سيتزوج من أجل الصعود إلى القمة لا إلى الهاوية وميللي إنسانة عاطفية بمقدورها أن تنتحر من أجله ولأجله.

- مهما يكن من أمر فالإنسان لابد وأن يواجه مصيره وقدره بشجاعة ودون خوف وأن يعترف بما ارتكب من أخطاء وخطايا وإذا كانت ميللي تشعر بخطيئتها في الزواج من جيمس فلماذا لا تصحح وضعها؟ وجاءني الميجور جابرييل في اليوم التالي، كان متعبا أكاد لا أعرفه، وقلت له: يبدو أنك خارج لتوك من حفل راقص أجهدك كثيرا.

- إن النجاح يجعلني أشعر بالقيء أين تحتفظ بأرقى المأكولات؟

قلت له: ولكنني لا أعتقد أن فشل والبراهام قد أنعشه.

فابتسم الميجور قائلا: إن هذا الرجل مسكين لقد حمل كل شيء على كاهله وإنني أشفق على حاله وأرثى له.

- أظن أنكما تتبادلان التهنئة والمواساة معا في مثل هذه

الأمور.

ابتسم جابرييل باستخفاف وقال: أوه.. طبعا.. طبعا سيحدث، وهنأته وقلت له: أتمنى لك مستقبلاً سياسياً باهرًا.

أجابني: وبعد عشرين سنة ساكبر ويصبح لي كرش كبير، وساكون من هؤلاء الأوغاد أصحاب المصالح والرتب الكبيرة.

قلت: إن أمورك الآن تمشي على ما يرام يا ميجور.

قطب حاجبيه وقال: لابد لك أن تضع ملحا على الجرح حتى تسعد.

- كلا.. أنا لم أقل لك شيئا يضايقك.

- أنت لم تقل ولكنك قلت الكثير دون أن تنطق فأنا أفهمك ولكن أخبرني بربك ماذا تفعل بنجاحك إذا كانت هناك شوكة في حلقك؟ هل ستكون سعيدا بنجاحك؟

- ومن هي الشوكة؟ ميللي مثلا؟

نظر ناحيتي باستغراب وقال: لا.. لا إن ميللي رغم أنني أحبها من كل قلبي إلا أنها لا تسبب لي ألما وأتمنى أن أراها

في لندن بعيدا عن هؤلاء البلهاء.

وأخرج من جيبه لفافة وقال هذه هدية زواج إيزيبلا فالمفروض أن أقدم لها هدية يوم الخميس القادم أليس كذلك؟

– كانت الهدية هي «الكتاب المقدس» وهذا ما لم اتوقعه من رجل مثل جابرييل إطلاقا.. وراح يقول:

– إنها نسخة نادرة مطبوعة منذ قرنين من الزمان وهي مناسبة لها.

– قلت له: نعم إنها رائعة تسر أي إنسان.

ودخلت تيريزا واستأذن على الفور وانصرف.

وسألتني: ما الأمر؟

قلت: إنه رد الفعل كما أعتقد.

قالت: بل إنه أمر خطير للغاية.

– للأسف فقد نجح ولو كان قد فشل لنال خيرا كثيرا ولكن النجاح سوف يجعله خنزيرا خاصة وأنه رجل قذر خشن الطباع ولكنه سوف يعمل حتى يعتلي آخر فرع في الشجرة.

وتدخل أخي روبير وقال وهو يدخل إلينا: كلا.. لن يصعد إليها أبدا وإذا صعد وتعلق بالفرع فلسوف يسقط سقوطا مدويا، إنه وغد حقير سافل لا أمان له.

★ ★ ★

كان الكل هنا يستعدون لحضور حفل زفاف اللورد سانت لو وإيزبيلا يوم الخميس.. وفي تلك الليلة لم أذق فيها طعم النوم حيث عانيت فيها كثيرا من الأرق والقلق وفي تمام الساعة الواحدة صباحا سمعت صوت أقدام خلف نافذة غرفتي وإذا بي أجد إيزبيلا وكانت ترتدي معطفين من الجلد السميك وعلى رأسها شال أحمر اللون وعلى الفور أضاءت نور الغرفة وأحسست كأنني في حلم.. ولا أدري لماذا انتابني الخوف منها وعليها فما الذي دعاها للتواجد هكذا في ساعة متأخرة من الليل! ألا تخاف؟

واستهلت حديثها معي قائلة:

- جئت لكي أقول وداعا يا كابتن هوج.

نظرت إليها في دهشة وقلت: وداعا؟!

- نعم لأنني سأرحل.

- سترحلين؟ مع اللورد سانت لو؟

- كلا.. بل مع جون جابرييل.

يا إلهي ما هذا الهذيان أنا في كابوس مزعج أم واقع

أليم؟

ما الذي يحدث بالضبط في تلك البلدة أي هوس وأي عبث وأي جنون هذا الذي أشهده وأعايشه اللعنة.. اللعنة.

أوه.. لقد تذكرت أن إحساسا كان بداخلي يؤكد أن شيئاً من هذا سوف يحدث فلا داعي للدهشة والاستغراب إذن.

وتذكرت أيضا اضطرابها ليلة الحفلة وهي تصرخ لابد أن يعود ريوبير لابد أن يعود سريعا.

كما تذكرت تيريزا وهي تقول: إن هذا الرجل الدميم لديه جاذبية خاصة عند النساء؟ فهل كانت إيزبيلا تعشقه؟ أنا لم أكن متأكدا من ذلك ولكن هأنا تأكدت الآن.

أما الميجور فهو لم يشعر إطلاقا بالحب ناحيتها بل الثابت لي أنه يشعر نحوها بالضعف والإذلال والمهانة ولكن ما الذي دفعه لارتكاب مثل هذه المغامرة الطائشة المحفوفة بالمخاطر الجسيمة التي تهدد مستقبله ب ومن الممكن أن تكلفه حياته على أقل تقدير، ياله من وغد حقير مبتذل!

كنت أحب إيزبيلا بل أحبها بقوة بحيث إنني لم أكن أطيق هجرها وكنت على الرغم من هذا كنت سعيدا لزواجها من اللورد فهذا يليق بها ولكن أين الحقيقة؟

والآن هروبها مع اللورد عمل غير مسئول سيؤدي إلى فضيحة كبيرة لأسرتها العريقة ولابد أن أتوسل إليها وأطلب منها أن تحتكم لصوت العقل وحين فتحت فمي لكي أقنعها وجدتني صامتا ساكتا لا أستطيع التحدث إليها وخيم الصمت بيننا حتى أسرعت نحوي وانحنت تقبلني قبلة ساخنة ولم أتكلم ولم أعلق وغادرت المكان تودعني لتذهب إلى الوغد الحقير ولم أجد سببا منطقيا لسكوتي حتى الآن.

★★★

انتهى الجزء الأول من تلك القصة بهروب إيزبيلا مع الميجور جون جابرييل وظل الأمر بالنسبة لي غامضا غير مفهوم حتى الآن، أما السياسة فقد كرهتها أكثر من ذي قبل ولو كان جابرييل عاقلا حكيما لجاء تصرفه على عكس ما فعل فهو لم يفكر بالفضيحة التي أصابت أسرة إيزبيلا واللورد سانت لو وحزب المحافظين لكنه ضرب بكل هذا عرض الحائط نزولا على رغبته وشهوته ونزواته، لكنه أبدا لم يفكر في سمعة أسرة الفتاة وكيف يفكر في شأنها وهو يضمر لها أحقادًا وعداوة دفينة لا نظير لها.. وأما الحزب فهو لم يكن مؤمنا بمبادئه أو منهجه بحال من الأحوال، إن كل همه هو النجاح في الانتخابات وليكن ذلك على حساب أي شيء المهم أن ينجح وليذهب الحزب إلى الجحيم ولكن الأشد غرابة أن الليدي سانت لو التمست له العذر فيما قام به حيث قال لتيريزا شقيقة أخي ذات مرة:

إننا جميعا نتحمل مسئولية هذا التصرف الطائش لإننا كنا نبحث عن رجل يخدم الحزب بأي شكل ووجدنا الرجل الذي جاء من أجل استغلالنا أيضًا رغم أننا نعرف أنه نصاب ومحتال وأفاق فكلانا كان يريد أن يستغل الآخر

وللأسف لم نسع للبحث عن رجل ذي مبادئ أو قيم فسقطنا في شباك هذا الوغد ولهذا أرى أن من واجبنا أن نقر ونعترف بالمسئولية حتى لايداهمنا اليأس من غبائنا.

وأما الليدي تريسليان فقد أقبلت إلى بيتي لكي تتحدث معي في هذا الشأن وقد كانت في حاجة إلى أن تفضي بمكنوناتها وآلامها ومتاعبها وكنت أنا الشخص الوحيد الذي يناسبها في هذا الأمر فأنا حالتي الصحية من شأنها أن تجعلني مستمعا جيدا لآلالم الآخرين وهي تريد أن تبث شكواها لرجل تعتبره مثل أبيها وقد قالت لي: إن الجميع في القصر لا يريدون الحديث معي في هذا الموضوع الشائك والغريب يا كابتن إن إيزبيلا كانت تحب اللورد بجنون ولم نكن نتوقع سقوطها في شباك هذا الأفاق الذي كنت أعتبره شديد الخطورة علينا لقد كانت هي واللورد في سعادة غامرة ألم تلحظ ذلك يا كابتن هوج؟

قلت: تخيلت فعلا أنهما سعيدان ولكن مفهوم السعادة يتغير ويختلف من شخص لآخر مثله مثل المعايير الجمالية.

- قالت: إنني متأكدة أن هذا الرجل قد سحرها مغناطيسيا ولا يمكن أن تذهب معه برغبتها وإرادتها إلا أن

الجميع يؤكدون هنا أنه ما من أحد يستطيع أن يجبر إيزبيلا على شيء لا تريده، إنني لم أعد أفهم ما هي الحقيقة؟ ولكن أتعتقد أنهما تزوجا؟ ثم أين ذهبا؟

- هل انقطعت عنك أخبارهما؟

- أبدا لا يوجد لدينا سوى الخطاب الذي تركته لنا وقد قالت فيه: إنها لن تندم على هروبها مع الميجور رغم أنها تعلم أن هذا سيفجر فضيحة وكارثة كبيرة ولكنها أحبت الميجور حبا جارفا لهذا فهي تطلب منا الصفح والعفو والتأييد والمباركة، ونظرت الليدي تريسليان ناحيتي والدموع قد تدحرجت من عينيها وهي تقول: مسكين هذا الفتى لقد كانت الصدمة عنيفة له والواقع أنني لم أكن قد رأيت اللورد منذ هروبها وسمعت أنه عاد للحاق بوحدته العسكرية في بورما.

وهزت الليدي تريسليان رأسها وقالت لقد كان هادئا كعادته لم ينطق بكلمة ولم يشأ أن يزعجنا بأي تصرف بعد هذا الحادث والغريب أنني فهمت من الليدي تريسليان أنه على الرغم من العار الذي لحق بالأسرة إلا أنها كامرأة عاطفية رومانسية تميل دائما إلى مثل هذا الزيجات

المجنونة التي تحركها الرومانسية، بعد مرور عامين أجريت الانتخابات من جديد وفاز مرشح حزب العمال والبرهام فوزا ساحقا وكانت الليدي سانت لو وزميلتاها قد غادرت القصر وقد انتقلوا للإقامة في بيت صغير يضم حديقة جميلة وعاد اللورد سانت لو بعد عام مصطحبا معه زوجة أمريكية جميلة.

وفي عام ١٩٤٧ قام أخي روبير بعرض لوحاته في العاصمة لندن وقد استقبله الجمهور بحفاوة كبيرة وفي تلك الأثناء كانت الجراحات الطبية قد تقدمت تقدما رائعا وقد نصحني طبيبي المعالج بالسفر إلى سلوفاكيا لإجراء جراحة عاجلة وتوجهت إلى مدينة زاجراد في عام ١٩٤٧ لكي أستشير الدكتور كراسفيتش وقد كان طبيبا ماهرا وقد أكد لي إمكانية نجاح العملية الجراحية وأنني أستطيع أن أمشي بعكازين بدلا من الجلوس على عربة هكذا كالمشلول.

ونجحت العملية فعلا وعاد الأمل يطل من جديد بعد أن احتل اليأس مكانه وبقيت بعد ذلك في زاجراد لمتابعة العلاج الطبيعي وبعدها بدأت أمشي في شوارع المدينة وأحسست بالإجهاد واتجهت إلى مقهى صغير لاحتساء الشاي وطاف بصري كالعادة بجميع الحاضرين وإذا بي

أجد أمامي جون جابرييل وكانت مفاجأة مذهلة فلم أكن أتخيل وجوده هنا أبدا وها أنا أراه وقد تغير أو إن شئت الدقة تكور وأصبح منظره يدعو للشفقة والعطف والرثاء وكدت لا أعرفه، إن وجهه قد تورم وعيناه جحظت بشكل مخيف وكان يبدو لي ثملا عربيدا ونظر هو الآخر ورآني وأقبل ناحيتي قائلا:

- يالها من مفاجأة إنني لا أصدق عيني أن أراك هنا.

كم تمنيت أن أطرحه أرضا انتقاما من تصرفاته الطائشة ولكني لم أكن قادرا على ذلك ثم إنني أريد أن أستفسر عما حدث لإيزبيلا وأجلسته على مائدتي وطلبت له مشروبا فقال:

- أشكرك يا كابتن أخبرني الآن كيف حال البلدة والقصر والناس.

- قلت له: إنني غادرت البلدة منذ فترة طويلة وإن السيدات الثلاثة غادرن القصر للإقامة في بيت صغير واللورد تزوج منذ فترة.

- قال: حسنا إذن الأمور تمشي على ما يرام.

ولم أشأ أن أرد على كلامه فقد كنت منهمكا في إيزبيلا

وحدق في وجهي قائلا: لا تنظر لي هكذا يا هوج كأنك تنظر إلى ذئب إنني أعرف أنك متلهف على سماع أخبار عن إيزيبلا.

سكنت خواطري وهدأت إنفعالاتي وقلت له:

- حسنا إنني أريد أن أعرف أخبارها؟

- لا بأس إنني عاملتها بما يليق بها ولم أتركها تعيش في كوخ حقير.

- هل هي في زاجراد يا جابرييل؟

- نعم وسوف تسعد بلقائك فهي تتشوق لرؤية الأصدقاء القدامى سألته في اشمئزاز: هل تزوجتها؟

أجاب ضاحكا: كلا طبعا ويمكنك أن تخبر أسرتها بذلك.

- لا توجد فرصة لكي ألتقي بالليدي لكي أخبرها.

- ولماذا لا تذهب وتخبرها بذلك؟

- لأن إيزيبلا ألحقت العار بالأسرة.

- لا عليك يا هوج.. لقد كنت أتمنى أن أرى وجوه السيدات الثلاثة وما حدث لهن لحظة سماعهن خبر هروبها معي.. يالها من لحظة!

- قلت له في شجاعة: إنك سافل حقير لا أخلاق لك ولا مبادئ.

قال في برود: هذه وجهة نظر لأنك تنظر تحت قدميك.

- لكن نظرتي منطقية وواقعية على كل حال.

- هذا لأنك إنجليزي حتى النخاع.

- لكنك أصبحت كالبهلوان المتكور.

- أبدا فأنا مشكلتي الإفراط في الشراب وإيزيبلا لا تشرب.

- إنني أرغب في رؤيتها.

لم أكن أعرف هل أنا فعلا في حاجة لرؤيتها أم أن هذا حديث دفعني الموقف إليه ثم هل هي ستسعد لوجودي أمامها أم لا؟

وصاح الميجور قائلا: سوف تكون سعيدا إذا اكتشفت أنها ليست حاملاً.

نظرت إليه في ازدراء وقال: أوه.. أنت تكرهني بشدة يا هوج.

- قلت: لأن هناك أسبابا تدفعني لذلك.

- قال: لا أعرف لماذا تكرهني هكذا؟ ثم إنني كنت أسعى دائما لإرضائك إلا أنك لا تبادلني هذا أبدا لأنك كنت تعشق إيزبيلا وكنت أنا أعرف ذلك ثم ازدادت كراهيتك لي لأنني هربت بها وأنت الآن تتلهف على رؤيتها رغم أنك تشمئز مني أليس كذلك؟

- كان بيني وبين إيزبيلا قصة حب غريبة لا يفهمها من هو مثلك.

- أنا أعرف أنك لم تغازلها لأنك رجل واقعي ولكنها ستسعد لوجودك.

- هذا هو السؤال الذي يشغلني هل ستسعد حقا لوجودي؟

- سيسرها ذلك وسأكتب لك العنوان واذهب إليها في أي وقت.

- قلت له: أي عمل تمارسه الآن؟

- أقوم بأعمال سرية وكل هذا لأنني ضحيت بكل شيء من أجل إيزبيلا وتناولت منه العنوان وأنا أنظر إليه شذرا وذهبت لغرفتي وتساءلت في نفسي وأنا طريح الفراش هل أستطيع إنقاذها من براثن هذا السفاح الحقير، آه لو أتمكن

من ذلك؟

وفي صباح اليوم التالي ذهبت إلى العنوان المذكور ومشيت في شوارع وأزقة حقيرة ووضيعة وكنت أهمس لنفسي:

-. أوه.. يا إلهي أهذا معقول! إيزبيلا الرقيقة الجميلة بنت القصور تعيش هنا؟!

أليس من المنطق أن أعود ولا أمضي في هذه الزيارة المشؤومة؟

إنني لا أريد أن أراها في مكان لا يليق بها حتى لا تتغير صورتها في عيني ولكنني مضيت ولك أن تتخيل قذارة المكان وحقارته التي تفوق كل وصف..

وصعدت درجات السلم حتى الطابق الأخير في هذا البيت الفظيع.. وكنت ألعن جابرييل فقد كدت أهوى من درجات السلم رغم العكازين ولكنني كنت أتطلع في لهفة لرؤية إيزبيلا المسكينة وطرقت الباب فوجدتها أمامي جالسة كالأطفال تحيك بعض خيوط الحرير كامرأة حقيرة والحقيقة أنها كانت كما هي في يوم جاءت لوداعي.. فثوبها كان لايزال محتفظا بوقاره وكان وجهها مشرقا متألقا، وما

إن وجدتني أمامها حتى أقبلت ناحيتي في ذهول وأحاطتني بذراعيها وراحت تقبلني وهي تقول في طرب:

- هوج أنا سعيدة.. سعيدة لوجودك هنا.

رأيت فيها إيزبيلا الجميلة الرقيقة، صحيح هي لم تسألني عن سبب وجودي ولم تشأ أن تهنئني عي شفائي فقد كانت مشغولة لوجودي أمامها كصديق قديم لها، وذهبت لتحضر مقعدا وجلست عليه وسألتها:

- خبريني يا إيزبيلا.. ماذا حدث لك؟

نظرت إلي وهي تبتسم وقالت: إنني بدأت هذا العمل منذ ثلاثة أسابيع هل يروق لك هذا؟

أخذت منها القماش التي قامت بتطريزها وكانت بحق غاية في الرقة والجودة والمهارة وقلت:

- أوه.. هذا رائع.. رائع يا إيزبيلا.

والواقع أنني شعرت وكأني أمام أميرة أسيرة في قلعة حصينة ثم قلت لها وأنا أناولها قطعة القماش الحريري:

- نعم.. نعم إنه رائع ولكن هذه الغرفة حقيرة لا تليق بك أبدا ونظرت ناحيتي في استغراب وقالت: هذا صحيح.

وللأسف لم تكن تهتم بمثل هذه الأمور وارتبكت وقلت لها:

- إيزبيلا إنني التقيت بالأمس مع جون جابرييل.

- أوه حقا؟ أين؟ إنه لم يخبرني بذلك؟

- هو الذي أعطاني عنوانك وطلب مني أن أراك.

- وجئت أنت لرؤيتي، يالك من رائع كريم!

- هل انت سعيدة يا عزيزتي؟

- إن كل شيء هنا مختلف عما اعتدت عليه من قبل.

- هل ترغبين في العودة معي إلى لندن؟

- كلا.. إن جون يعمل هنا وإن كنت لا أعرف طبيعة عمله.

- ولكن هل أنت سعيدة؟ إذا كنت قد ارتكبت خطيئة فلماذا لا تعترفين وتصححين أوضاعك، إن هذا بيدك.

قالت: كلا.. كلا لا يمكن أن افعل هذا أبدا.

- إيزبيلا! انا أحبك فهل أنت سعيدة هنا؟ هل تعشقين جون إلى هذا الحد؟

- ماذا تقصد بكلمة سعيدة؟ هل تعني أنني سعيدة كما كنت في سانت لو؟

- نعم.

- كلا بكل تأكيد.

- إذن لماذا تصرين على البقاء هنا؟

- مستحيل.

- كيف وأنت لم تتزوجي من جون.

- نعم نحن لم نتزوج.

- لماذا لم تتزوجا؟

فكرت كثيرا وبدت على وجهها ملامح الدهشة وكأنها لم تسمع هذا السؤال من قبل وراحت تقول:

- إن جون لم يفكر في الزواج مني.

- وما هو السبب في ذلك؟

- أتظن أن هناك سببا لذلك؟

- أظن إنه مدين لك بأشياء كثيرة.

- كلا هو لا يشعر بذلك إطلاقا.

- كيف هذا؟

- لاننا حين هربنا لم نتحدث عن الزواج لكنها رغبة مشتركة في الهروب فقط، والزواج شيء مختلف لم نفكر فيه.

- وماذا عن اللورد سانت لو حلمك الجميل؟

- أوه.. لقد كان هذا زواجا لو أنه قد حدث.

- ماذا تعرفين يا إيزيبلا عن الزواج بصرف النظر عن الأوراق والمستندات القانونية التي تكتبها لنا الحكومة بشأنها؟

قالت بعد تفكير عميق: أظن أنه يقوم على زوجين متفاهمين معا وأن يشاطر كل منهما الآخر مشاعره وأحزانه وأفراحه.

- إذن هذا ينطبق عليك أنت وجابرييل؟

- تمنيت أن أكون كذلك ولكني لا أعرف عنه شيئا.

نظرت إليها في عطف وشفقة فقد كانت صادقة في أنها لا تعرف عن جابرييل أي شيء فقلت لها:

- هل أخبرهم في سانت لو أنك مازلت تحبينهم؟

ما إن نطقت بهذه الكلمات حتى انسابت الدموع من عينيها لم تكن سوى دموع ذكرياتها الجميلة.

- آه لو تعودين إلى الوراء يا إيزبيلا.

نظرت ناحيتي وقالت: هل الإنسان حر في اختيار ما يريد؟

وحين أردت أن أجيب على سؤالها نما إلى أذني صوت خطوات تدق الأرض بعنف ثم فتح الباب جون جابرييل وهو يترنح وكان منظره مقززا للعين وراح يقول:

- يبدو أنك جئت إلى هنا بسهولة.

قلت في حدة: نعم.

وانصرفت ناحية الباب وقلت معذرة: إنني راحل.

فقال: حسنا حتى لا تقول إنني منعت عنك فرصة رؤيتك لها، وأردف يقول: هلا حضرت غدا لنتناول العشاء على المقهى إن بعض أصدقائي سيحضرون وسوف تسعد إيزبيلا بذلك أليس هذا صحيحا يا إيزبيلا؟

أما إيزبيلا فقد كانت تبدو أمامي كأنها سعيدة لرؤية جون جابرييل هكذا أما هو فقد كان منظره لا أستطيع أن

أصفه إنه كان في نظري آية من آيات اليأس والإحباط ونزلت درج السلم مسرعا وأنا أترك جابرييل الحقير الذي تغير من سيئ إلى أسوأ وإيزبيلا التي كانت كما هي متألقة لم تتغير.

* * *

هناك ذكريات كريهة مهما حاول المرء أن يتلاشها لا يستطيع أبدا .

ومن بين هذه الذكريات ما حدث في مقهى «جرى» فقد أعد جابرييل عشاء لكي يثير أعصابي بخسته ونذالته وحقارته وراح يقدم لي أصدقاءه وشركاءه..

وكانت إيزبيلا تجلس معهم ولم تكن لها علاقة معهم أبدا فهم من طبقات دنيئة حقيرة من حثالة الأجانب لم يكن بينهم صحفي أو شاعر أو رسام أو موسيقار أو مطرب بل حثالة بكل ما تحمله هذه الكلمة من معاني.

وشعرت بالغيظ من أجل إيزبيلا كيف يسمح لها هذا الوغد أن تجلس مع هؤلاء الأغبياء.

والغريب أنني لاحظت إنها لا تبالي بهؤلاء الحثالة.

بل كانت تتصرف معهم بأدب وتواضع وبساطة شديدة، وكنت أنظر إليها فأجدها تبتسم وهي تبادلني النظرات كأنها تؤكد لي سعادتها بهذا الجمع الغفير الذي لا يتناسب معها وكنت أقول لنفسي:

هل يستطيع عصفور الكناريا أن يغني في طرب على صندوق زبالة؟ هل تستطيع الوردة أن تزدهر فوق مستنقع من القاذورات؟

وغادرنا جميعا المقهى وكانوا جميعا سكارى تقريبا وكادت سيارة تشق الطريقة بسرعة أن تصدم إيزبيلا لولا عناية الله التي أنقذتها في اللحظة الأخيرة حين تراجعت نصف خطوة للوراء وبدا وجهها شاحبا باهتا وصاح جابرييل يقول:

- أوه.. ماذا دهاك يا إيزبيلا لقد نجوت بأعجوبة هل أصابك شيء؟

قالت: كلا.. إنني بخير.

وكان صوتها ضعيفا فنظرت ناحيتي وقالت:

- الاحظت كم أنا جبانة يا هوج.

ولكن كانت هذه هي آخر الكلمات التي سمعتها منها قبل وقوع المأساة،

واتجهت إلى مقر إقامتي وخامرني إحساس بالرغبة لرؤية إيزبيلا قبل عودتي لأسرتي في سانت لو وحين

جاءني جون جابرييل لاحظت أن في وجهه علامات غريبة لم ألاحظها من قبل فقد كان مضطربا متوترا وقد قال في هدوء وبرود:

- ماتت إيزبيلا نظرت إليه في دهشة وغضب فأردف يقول: إنها ماتت برصاصة .

شعرت أنني أرغب في أن أموت وألحق بها إن النار تسري في جسدي وقلت: ماذا؟ هذا هراء؟ من قتلها؟ كيف وأين ومتى؟

وروى لي ما حدث حين كانا يجلسان معا في المقهى الذي اعتاد الجلوس عليه حين قابلته فيه أول مرة وسكت.

فقلت في لهفة: ماذا حدث أكمل ولا تتوقف؟

- قال: دخل طالب مجنون وحسبي ستولافون وهو حاكم سلوفاكيا الطاغية المستبد وصوب مسدسه نحوي وهو يشق طريقه من بين موائد المقهى صائحا:

أخيرا عثرت عليك أيها الطاغية الرهيب وأطلق رصاصة اخترقت قلب إيزبيلا.

- قلت: ولماذا لم تسرع لإسعافها؟

- قال: كنت في حالة رعب وذهول مما يحدث أمامي ولم يسعفني الوقت لكي أتحرك.

نظرت إليه في اشمئزاز وازدراء وقلت في غضب وحدة:

- قضي الأمر أرأيت ما فعلته بها أيها الحقير السافل.

لو أنك تركتها لكانت الآن على قيد الحياة.

- نعم وكنت أنت تزوجتها وجلست في القصر على ساحل البحر وتنجبان الصبيان والبنات أليس كذلك؟ إنني لن أغفر لك أبدا.

- بل أنا الذي لن أسامحك أبدا ولن أغفر لك.

- لا أبالي بذلك يا هوج.

- ماذا تفعل هنا يا جون؟ ماذا تريد مني؟

- أريد أن تصحبها معك لكي يوارى جثمانها تراب سانت لو.

- نعم سأحمل جثمانها فهذا المكان ليس أهلا بها .

ثم دفعني فضولي وقلت له في غضب: لماذا خطفتها؟ هل كنت تشتهيها إلى هذا الحد؟ كيف فكرت في ذلك؟

- قال: أنا لا أفهم ماذا تريد؟

- أنت طبعا لا تفهم.

- قال: وأنت أيضا لا تفهم أسفي جيدا.

لقد أردت إذلالها وإهانتها، خطفتها من قصرها المنيف، عشت معها في مكان قذر وحقير وعاشرت النساء وتعاطيت المخدرات والخمور لكنها أبدا لم تثر ولم تتشاجر معي.

وكان هذا يثير أعصابي فقد كنت أتمنى أن تتشاجر معي لكي أضربها وأكون أنا الأقوى لكنها كانت تجلس أمام كل هذه التصرفات منهكمة كالنسوة في تطريز الملابس، وتغني في صوت خافت كأنها في قصرها الملعون.

لقد ملكت جسدها ولكني لم أملكها وها هي قد أفلتت مني وصاح يقول: هيا تعالى خذها إلى سانت لو.

قلت: ليغفر الله لك شرورك وآثامك.

قال: أي شر تتحدث عنه إنها هي التي كانت شرا لي لقد حطمتني ودمرتني وأهانتني وهي التي جعلتني أتخلى عن مسز بارت التي كاد أن تطلب الطلاق من زوجها لكي أتزوجها وكنت أحبها إلى حد الجنون أما هذه فلم أحبها

ولن أحبها أبدا وها هي قد ماتت وذهبت إلى الجحيم.. خذها أرجوك إلى سانت لو.

وشعرت أنني أريد أن أطلق عليه الرصاص ولكن لماذا أدمر مستقبلي من أجل وغد حقير مثل هذا.

★ ★ ★

واجهتني متاعب كثيرة في إنهاء أوراق نقل جثمان إيزيبلا ولم أكن قد التقيت مع جابرييل بعد لقائي الأخير معه.

وتمت إجـراءات الدفن طبـقـا لطقـوس الأسـرة ووارى جثمانها تراب مقابر سانت لو وعدت بصحبة السيدات الثلاث وقد توجهن لي بالشكر على أنني بذلت جهدا خارقا لإعادة جثمان الراحلة وحدثتني الليدي تريسليان قائلة:

إن اللورد سانت لو قد تزوج من فتاة رائعة وقد ملكت شغاف قلوبهن جميعا.

وانسابت الدموع من عينيها قائلة: أوه.. لماذا وقع كل هذا؟

أما مسز بيجهام كارتريس فقد كانت أشد مراسا من ذي قبل سألتني حين هممت بالانصراف:

- هل تتذكر الصغيرة بارت؟

- طبعا ماذا جرى لها؟

- أرى أنها سترتكب نفس الحماقة هل تعرف ماذا حدث لبارت؟

- كلا.

- مـات إثر سـقـوطه في حـفـرة وهو يتـرنح من فـرط الشراب.

- أوه.. إذن أصبحت أرملة الآن؟

- وقد سمعت أنها على عـلاقة مع أحد المزارعين وهو رجل سيئ السمعة فهو يدمن الشراب وشرس الطباع وهكذا سوف تقع في نفس الورطة ويبدو أنها لا تتعظ.

كنت أسـأل نفس هذا السـؤال وأنا في عـربة القطار وتذكرت جينفر وقد سمعت عنها أخبارا سيئة في الفترة الأخيرة، وتذكرتها وأنا ابتسم وقلت في نفسي: أوه.. إنني لا أرغب أن أراها أبدا لقد أصابتني بالملل والسأم وذهبت إلى تيريزا وقد عاتبتني لموقفي من جابرييل ولأنني عدت حاملا جثمان إيزيبلا إلى سانت لو وأردفت تقول:

- كان ينبغي أن أقول إنها ترقد في سلام يا تيريزا.. لقد كانت تشعر أن الموت يقترب منها وأن عمرها لن يطول.

كانت قوية جدا وقد تضايقت لرحيلها المفاجئ.

كانت تيريزا جالسة فوق مقعد كبير تنظر إلى لوحة

باهتة وقد أصغت إلي في اهتمام كبير وقالت: حين انتهيت من رواية قصتي:

- أنت محظوظ جدا يا هوج.

- أنا؟ محظوظ؟

نظرت إليها في دهشة فأردفت تقول: نعم لأنك أحببتها.

- نعم هذا صحيح ومع ذلك عجزت عن إنقاذها وعن حتى إمكانية منعها من الهرب.

- هذا لأنك كنت تعشقها فتركتها تتصرف كما يحلو لها.

- نعم هذا صحيح.

- عادت تيريزا تقول: صدقني إنها كانت سعيدة لحبك لها.

قلت مستغربا: نعم شعرت بذلك.. وإن كنت أتمنى أن يصلى جابرييل بنار جهنم في الآخرة.

قالت: نعم هو الآن يتعذب في الدنيا وسينتظره عذاب الآخرة.

- إذا كنت ترثين له فدعيني أخبرك عن حقيقته.

قاطعتني قائلة: أنا لا أرثى له بل أشعر نحوه بشيء أكثر من الرثاء.

- لا أفهم ماذا تقصدين؟ ليتك سمعته وهو يتكلم في زاجراد إنه لم يكن متأثرا بموت إيزيبلا إطلاقا.

- ما أدراك؟ إن الله يعلم ما في نفسه دعه وشأنه إن الله سيحاسبه.

★ ★ ★

الخاتمة

هذه هي قصتي.. أقصد قصة الرجل الذي رأيته لأول مرة في سانت لو ولآخر مرة في صحة جيدة في زاجراد والذي وجدته الآن يحتضر ويلفظ أنفاسه الأخيرة في غرفة قذرة بباريس تكلم بصوت خافض قائلا:

- أنصت إلي جيدا يا نوريز يجب أن تعرف حقيقة ما حدث في مدينة زاجراد.

إنني لم أصارحك بالحقيقة في ذلك الوقت ولم أكن قد فهمت الأمر عندئذ.

وتوقف برهة عن الاسترسال في الكلام ريثما يسترد أنفاسه ثم استطرد قائلا: أنت تعرف بالطبع إن إيزبيلا.. كانت تخشى الموت أكثر من أي شيء آخر.

هززت رأسي بالإيجاب.. فقد كنت أعرف ذلك جيدا.. وتذكرت خوفها حين رأت عصفورا ميتا في شرفة سانت لو.. وشحوب وجهها.

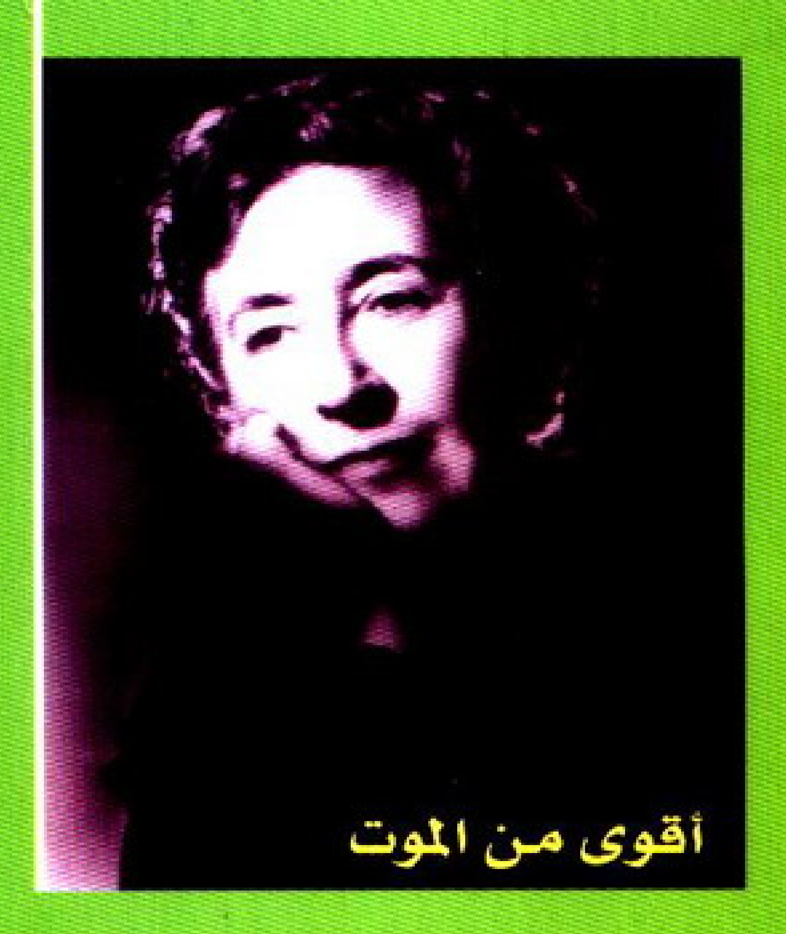
- اسمعني جيدا أرجوك.. كان الطالب مندفعا ناحيتي شاهرا مسدسا ولم يكن يبعد عن مائدتي بخطوات كثيرة وكان بمقدوري أن أتحرك.. ولكن إيزبيلا لاحظت الخطر

الذي يقترب مني فألقت بنفسها على صدري لكي تفتديني.

وصاح جابرييل يقول: هل تفهم يا هوج إنها أحبت الموت من أجلي لكي تفتديني.. لقد فهمت أخيرا أنها كانت تحبني بجنون اما أنا فلم أكن أفهم معنى هذا الحب فقد امتلكت جسدها فقط ولا اريد أكثر من ذلك.. وكان غريبا أن تضحي إنسانة مثلها أحبت الحياة وكرهت الموت من أجل رجل لا يحبها وهكذا يا عزيزتي كانت النهاية.. نهاية إنسانة رقيقة على يد سافل حقير مثلي لا يستحق سوى الموت مائة مرة.

قلت له: إنها ليست النهاية بل هي البداية.

تمت


أقوى من الموت


أكثر
الروايات
مبيعا
فى العالم